المرأة في حديث القرآن الكريم

فضيلة الشيخ

محمد الراوى

المكتبة الأكاديمية
شركة مساهمة مصرية

المكتبة الأكاديمية
شركة مساهمة مصرية
الحاصلة على شهادة الجودة
ISO 9002
UKAS
QUALITY MANAGEMENT
Certificate No.: 82210
03/05/2001

المرأة

في حديث القرآن الكريم

المرأة

في حديث القرآن الكريم

فضيلة الشيخ

محمد الراوي

الناشر

المكتبة الاكاديمية

شركة مساهمة مصرية

٢٠٠٨

حقوق النشر

الطبعة الاولى ٢٠٠٨م-١٤٢٨هـ

حقوق الطبع والنشر © جميع الحقوق محفوظة للناشر :

المكتبـة الاكاديميـة

شركة مساهمة مصرية

راس المال المصدر والمدفوع ١٨,٢٨٥,٠٠٠ جنيه مصرى

١٢١ شارع التحرير - الدقى - الجيزة

القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون : ٣٧٤٨٥٢٨٢ - ٣٣٣٦٨٢٨٨ (٢٠٢)

فاكس : ٣٧٤٩١٨٩٠ (٢٠٢)

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناشر .

١

بِسْمِ اللهِ، والحَمْدُ للهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلى رَسُولِ اللهِ.

وبعـــد..

فقد كَثُرَ الذينَ يُظهرونَ اهتمامَهُم بقضيةِ المرأةِ في شرقٍ وغربٍ، مع اختلافِ الدوافعِ، وتبايُنِ الغاياتِ.

كُلٌّ يدَّعي تكريمها، ويُظهِرُ الحَفَاوةَ بشأنِها !

و لم تَسْلَم قضيةُ المرأةِ - كغيرها - من تلبيسٍ، وغِشٍ، وخِداعٍ.

و لم تَسْلَم - هي نفسها - من عَبَثِ العابثين، وخِداعِ الْمُفسِدين.

ولا بُدَّ من ميزانٍ صادقٍ تُوزَنُ به أحوالُ الناسِ، ويُعرَفُ المُبْطِلُ من المُحقِّ، ويتميَّزُ المفسد من المُصْلِحِ.

ولو تُرِكَ الأمرُ لتقديرِ الناسِ لَغَلَبَ الضَّعفُ، وتحكَّمَ الهوى، وظهرتْ الأنانيةُ.

وعندئذٍ تضيعُ الواجباتُ، وتُهدَرُ الحقوق.

ومن رحمةِ اللهِ بخَلْقه أنْ أرسلَ إليهم الرسلَ بالبيِّناتِ، وأنزل معهم الكتابَ والميزانَ؛ ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ (١)

(١) الحديد: من الآية ٢٥.

بميزانِ الله تُوزَنُ الأمورُ. وعلى نُورِ الكتاب تُبْصَرُ الحقائق، وتُعْرَفُ العواقب، وتُسمَّى الأشياءُ بأسمائها الصحيحة، ويُنْصَفُ الرجلُ والمرأةُ، والكبيرُ والصغيرُ، والغَنِيُّ والفقيرُ، والحاكمُ والمحكومُ؛ لأن الله غنيٌّ عن العالمين، وقد أحاطَ بِكُلِّ شيءٍ علماً، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ، يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، يُجيرُ ولا يُجَارُ عليه، يعلمُ خائنةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصدور.

فميزانُه هو الميزانُ، وحُكمه هو الحقُّ.

ولا يَرفُضُ حُكْمَ الله إلاَّ صاحبُ هَوىً، يُريدُ أن يُضِلَّ ويُفْسِد.

ولا يأبى شَرْعَ الله إلاَّ منافقٌ، يُظهِرُ إيماناً، ويُبطِنُ كُفْراً.

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

لِذَا فلن يكون حديثُنا عن المرأة إلاَّ من القرآن الكريم، وبيانه من السُّنَّة الصحيحة.

---

(١) النور: ٤٧ – ٥٢.

ولن نُقارِنَ بين ما كانت عليه المرأةُ قبل الإسلام، وما صارت إليه بعيداً عنه.

ولن يَستَخِفَّنَا غيرُ مُوقِنٍ بدينِ الله، أو مفتونٌ بزينةِ الحياة الدنيا.

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ۚ ﴾ (١)

دينُ الله باقٍ، وهو الحقُّ. والجنُّ والإنسُ يموتون، والله حيٌّ لا يموت.

﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢)

أخي المسلم: سأقِفُ معك أمامَ آيةٍ من كتاب الله، نَرى فيها التكريمَ للرجلِ والمرأةِ جميعاً، ونرى المساواةَ فيما يتَّفِقُ مع فطرةِ كُلٍّ منهما.

مساواةٌ فيما يُحقِّقُ الفَضْلَ والشَّرَفَ، ولا يُهمِلُ الصِّفَةَ التي خُلقَت المرأةُ عليها.

فإنه من السخريةِ بالعقول، والاستخفاف بالحقائق، أنْ تُطْلَق كلمةُ (المساواة) دونَ مراعاةٍ للصفةِ التي خُلِقَ عليها الرجلُ، وخُلِقَت عليها المرأةُ؛ فإن المساواةَ المطلقة - في كُلِّ شيءٍ - يرفضها العقلُ، ويأباها الشَّرعُ، وتُنكرها فطرةُ الخَلْق.

أعوذُ بالله من الشيطانِ الرَّجيم:

﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ

(١) الرعد: من الآية ١٧.

(٢) الفرقان: ٥٨.

وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (١)

عَشْرُ صفاتٍ يُوصَفُ بها الرجلُ، وتُوصَفُ بها المرأةُ.

كُلُّ صفةٍ تقترنُ بحقوقٍ وواجبات لا يُوصَفُ بها مَن أهملها أو ضيَّعَهَا.

فلا يُوصَفُ بالإسلام إلاَّ مَن أقامَ فرائضه ولم يُضيِّع، وتمسَّك به ولم يرتد.

روى مسلمٌ، عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » (٢)

الرجلُ والمرأةُ في ذلك سواء. في طَلَبِ الرِّفعةِ، والتطهر، والعبادة، والسلوك النظيف في الحياة.

وللمرأةِ مكانُها إلى جانبِ الرجل، ولها مكانَتُهَا بما تُحرزُه من صفاتٍ، وما تُحقّقه من فضائلِ الأعمال.

وقد تفوقُه إنْ أرادت. بخشيتها، ومراقبةِ ربِّها، والقيامِ بما أوجبَ الله عليها.

فلنقرأ هذه الصفات من كتاب اللهِ، ولنعمل على تحقيقِها في حياةِ الرجال والنساء؛ لنحظى – جميعاً – بما أعدَّ الله لهؤلاء ﴿ **أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾.

---

(١) الأحزاب: ٣٥.

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ رقم ٤٣٤٨.

٢

أخي المسلم:

المرأةُ في حديثِ القرآنِ الكريمِ لها شأنٌ، وهي مُطالَبَةٌ بما يُطَالَبُ به الرجلُ من التكاليف، **إلاَّ ما كان شاقّاً على فِطرتها.**

فهي تُجاهِدُ جهاداً لا شوكَةَ فيه.

وتُكلَّفُ من الأعمالِ بما تطيق، بلا عُسْرٍ ولا حَرَجٍ.

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١)

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (٢)

وما بُنِيَ الإسلامُ عليه تُؤمَرُ به، كما يُؤْمَرُ الرجلُ « بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ » (٣)

وجميعُ الأعمالِ تُؤْجَرُ عليها، كما يُؤْجَرُ الرجلُ. وتفاوُت الدرجات مبنيٌّ على صِدْقِ الإخلاصِ، وموافقةِ الشَّرْعِ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٤)

---

(١) البقرة: من الآية ٢٨٦.

(٢) البقرة: من الآية ١٨٥.

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم ٢١.

(٤) النحل: ٩٧.

وفي حديثٍ سابقٍ تَلَوْنَا الآيةَ الكريمة ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (١)

ونَودُّ أن نَقِفَ - وقفةً يسيرةً - عند كُلِّ صفةٍ من هذه الصفات (الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، والصبر، والخشوع، والتصدق، والصوم، وحِفْظ الفروج، وذِكْر الله)

فإنَّ لكُلٍّ منها أثراً بالغاً في حياة الفردِ - رجُلاً كانَ أو امرأةٍ - وفي حياة المجتمع.

بل لها نتائجُها في العاجلة وفي الآخرة.

ولقد سُئِلَ الرسول ﷺ في حديثِ جبريل الطَّيْلاَ حين قال: « يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنْ الإِسْلامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ » (٢)

---

(١) الأحزاب: ٣٥.

(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم ٩.

فَسَّرَ الرسولُ ﷺ الإسلامَ بأعمالِ الجوارح الظاهرة من القول والعمل. فجميعُ الواجباتِ الظاهرةِ داخلةٌ في مُسمًّى (الإسلام)، وتلك أصولُها التي بُنِيَ الإسلامُ عليها.

وأمَّا (الإيمانُ) فقد فَسَّرَهُ الرسولُ ﷺ بالاعتقادات الباطنة.

وأودُّ أن نعرفَ - هُنا - أن أحدَ الاسمين (الإسلام، والإيمان) إذا أُفْرِدَ بالذِّكْرِ دَلَّ انفرادُه على ما يدلُّ عليه الآخرُ، وإذا قُرِنَ بينهما - كما في حديثِ جبريل الذي أَشَرْتُ إليه - فُسِّرَ الإسلامُ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، والإيمان بالاعتقادات الباطنة.

ولذلك نرى الرسولَ ﷺ حينما سُئِلَ عن الإيمان مُفْرَداً، أجابَ بما فَسَّرَ به الإيمانَ والإسلامَ معاً، كما في حديث جبريل. وكذلك عندما سُئِلَ عن الإسلام مُفرداً.

وبِذَا يُعْرَفُ أنه: إذا أُفْرِدَ كُلٌّ من الإسلام والإيمان بالذِّكْرِ، فلا فرْقَ بينهما، وإنْ قُرِنَ بين الاسمين، كان بينهما فَرْقٌ، وهو أنَّ الإيمانَ: تصديقُ القلبِ وإقرارُه ومعرفتُه. والإسلامَ هو: استسلامُ العبد لله، وخضوعه وانقياده.

وبِذَا نستطيع أن نُدرِكَ - بلا تعارُضٍ - ما هو مشهورٌ عن السلفِ وأهلِ الحديث، وما عليه الجماعةُ والصحابةُ والتابعينَ من أنَّ « الإيمانَ قَوْلٌ وعملٌ ونِيَّةٌ، وأنَّ الأعمالَ داخلةٌ في مُسمَّى الإيمان ».

وهذا ما يَدُلُّ عليه القرآن الكريم، وتُبيِّنه السُّنةُ الصحيحة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

وفي الصحيحين، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ » (٢)

وكَتَبَ عمرُ بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أهلِ الأمصار يقول: « أمَّا بعدُ، فإنَّ الإيمانَ فرائضُ وشرائع. مَن استكملها استكْمَلَ الإيمانَ، ومَن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان »

أخي المسلم: الإسلامُ والإيمانُ صِفتان ترتبطان بأعمالٍ صالحةٍ ينضبطُ بها سُلوكُ الإنسان، وتُصانُ الجماعةُ من جُموحِ الهوى ونزغاتِ الشياطين.

ومجالُ التنافس مفتوحٌ لِمَن كان ذا هِمَّةٍ عاليةٍ، وحكمةٍ راشدةٍ.

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٣)

تنافُسٌ على مرضاتِ الله بتحقيق ما أوجبه الإسلامُ، وما يفرضه الإيمانُ.

وبه تُصانُ المرأةُ من عَبَثِ العابثين، وخداعِ المفسدين، الذين يريدون لها مساواةً في غير مساواةٍ، ويطلبونها لأهوائهم وشهواتهم، قبلَ أن يطلبوها أُمًّا لمجتمعٍ كريم.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١)

---

(١) الأنفال: ٢- ٤.
(٢) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شُعب الإيمان وأفضلها وأدناها، رقم ٥١.
(٣) المطففين: من الآية ٢٦.

٣

أخي المسلم:

حديثُ القرآنِ حَرِيٌّ أن يُستَمَع إليه، وأن يُستجَابَ له، وأن يُعْمَل به؛ لأنه حديثُ الخالقِ عمَّنْ خلَقَ، وأَمْرُ الخالقِ بِمَا يُصلِحُ خلْقَهُ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾(٢)

وقد أنزل الله هذا الحديثَ على نبيِّه ﷺ؛ ليكونَ هُدىً للناس، وتبصرةً لهم في جميع أحوالهم ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾(٣)

فلنستمع إلى حديثِ القرآن عن المرأة وهو يَجمعُ بينها وبين الرجلِ في مساواةٍ فطريةٍ، في فضائل الأعمال، لا فيما لا تصلح فيه المساواة ممَّا يريده العابثون أو المفسدون، من قيامها بأعمال تَفْتقِدُ فيها أُمومَتَها، وأُنوثَتَها، وكرامَتَها، وينال الأسرةَ من الضَّياعِ بقَدْرِ ما ينال المرأةَ من إهدارٍ لقيمتها، أو نسيانٍ لرسالتها.

فلنستمع إلى حديثِ القرآن للرجال والنساء جميعاً؛ ففيه إعلاءٌ للناس جميعاً.

إعلاءٌ لِمَن اتَّبعَ، وخَسارةٌ لِمَن أعرضَ.

---

(١) العنكبوت: ٦٩.
(٢) الملك: ١٤.
(٣) الزمر: ٢٣.

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (١)

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٢)

وذاك حديثُ القرآنِ عن الرجل والمرأةِ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (٣)

وفي حديثٍ سابقٍ تحدَّثْنا عن الإسلامِ والإيمان، وما يجب علينا لتحقيق ما أوجَبَهُ الإسلامُ، وفَرَضَهُ الإيمانُ.

واليومَ نتحدَّثُ عن القنوت ﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾

والقُنُوتُ: لزومُ الطاعةِ مع الخضوع.

والكَوْنُ كُلُّه خاضعٌ لله بفطرته.

---

(١) طه: ١٢٣، ١٢٤.

(٢) فصلت: من الآية ٤٤.

(٣) الأحزاب: ٣٥.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (1)، ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ (2)، ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (3)

وهذا الخضوعُ الفطريُّ يُوحي للإنسان أن يخضعَ بإرادته لما أُمِرَ به، أو نُهِيَ عنه.

وكثيراً ما يتحدَّث القرآنُ الكريمُ عن خضوعِ الكونِ لله، وتسخيره للإنسان، كثيراً ما يذكُر دعوةَ الإنسان إلى الاستقامةِ على الفطرة، والطاعة لربِّه، وعدمِ الإفساد في الأرض.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (4)

لقد أُمِرْنا بلزومِ الطاعة لله، والخضوعِ له فيما أَمَرَنا بِهِ أو نَهانا عنه؛ لتتَّسِقَ إرادتُنا مع فطرةِ الكون الذي لا يَنِدُّ شيءٌ فيه عن طاعةِ ربِّه.

---

(1) يس: ٤٠.
(2) البقرة: ١١٦.
(3) الروم: ٢٦.
(4) الأعراف: ٥٤ – ٥٦.

﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (١)

والقنوتُ صفةٌ يُمْدَحُ بها الرجلُ، كما تُمْدَحُ بها المرأةُ حين تشتغلُ بعبادةِ ربِّها، وتُخلص القَصْدَ له.

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (٣)

﴿ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ ﴾ وُصِفُوا بذلك؛ لاشتغالهم بعبادةِ الله وحده، ورفْضِهم كُلَّ ما سواه. أمسكتْ ألسنتُهم عن اللغو، واشتغلت بذكر الله، فنالَتْ من الأجرِ وطِيبِ الذِّكْرِ ما جعلها تُذْكَرُ بالفضلِ في الأوَّلينَ والآخرين.

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٤)

والمرأةُ الصالحةُ تُوصَفُ بالقنوتِ لزوجِها، طاعةً لربِّها.

---

(١) البقرة: ٢٣٨.
(٢) النحل: ١٢٠.
(٣) التحريم: ١٢.
(٤) الزمر: ٩.

﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ (١)

﴿ قَـٰنِتَـٰتٌ ﴾ مُطيعاتٌ لأزواجهنَّ.

﴿ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ تحفظُ زوجَها - في غيبته - في نفسها وماله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ ؟ قَالَ: الَّتِي تَسُرُّهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ » (٢)

﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ أي: بحِفْظِ الله لَهُنَّ.

والمحفوظُ مَن حَفِظَهُ الله. والسبيلُ إلى حفظ الله أن تحفظَ حدودَه وأوامرَه ونواهيه، بأن تَقِفَ عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده فلا تتجاوز ما أَمَرَ به وأَذِنَ فيه إلى ما نهى عنه. فمَن فعل ذلك فهُو من الحافظينَ لحدود الله. ومَنْ حَفِظَ اللهَ حَفِظَهُ، ومَن حَفِظَ اللهَ وَجَدَهُ.

« احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ » (٣)

« احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ » (٤)

ذاكَ هو السبيلُ لحِفْظِ الله. وهو السبيلُ لمرضاته، وتلك هي الصفاتُ الجديرةُ بأن يتنافس عليها المتنافسون، وأن تأخذ المرأةُ نفسها بها؛ لتحظى بالمغفرةِ والأجر العظيم.

---

(١) النساء: من الآية ٣٤.

(٢) النسائي: كتاب النكاح، باب أي النساء خير، رقم ٣١٧٩.

(٣) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٤٤٠، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٤) أحمد: ومن مسند بني هاشم، بداية مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، رقم ٢٦٦٦.

٤

أخي المسلم:

مع الآيةِ الكريمةِ من سورةِ الأحزاب ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ... الآية ﴾ وهي الآيةُ الخامسة والثلاثون.

ومع الصفةِ الرابعةِ من صفات مَن أعدَّ اللهُ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً.

﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ والصِّدْقُ: نقيضُ الكَذِب. وَصَدَّقه: قَبِلَ قَوْلَهُ. وصَدَقَهُ الحديث: أَنْبَأَهُ بالصِّدْقِ. والصِّدِّيقُ: المُصَدِّق. وفي التنـزيل: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [1] أي: مبالغَةً في الصدق. ورجلُ صِدْقٍ: نقيض رَجُل سوءٍ. وامرأة صدق كذلك.

والصِّدْقُ مطلوبٌ في الأحوال كُلِّها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [2]

الصدقُ مع الله: في النيَّة، والعمل.

والصدقُ مع النفس: فلا يرضى بخداعِها، أو الغفلةِ عن عُيوبِها.

والصدقُ مع الناس: فلا يكذب، ولا يَخْدَع.

ومَن لَزِمَ الصدقَ، قَادَهُ إلى الجنة، ومَن لَزِمَ الكذبَ، انتهى معه إلى النار.

كما جاء في الحديث المُتَّفَقِ عَلَيْهِ، عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال:

---

(١) المائدة: من الآية ٧٥.

(٢) التوبة: ١١٩.

« إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا » (١)

إن تمسُّكَ الناسِ بالفضائلِ وحِرْصهم عليها، هو الذي يُبقي عليهم كمجتمعٍ قويٍّ متماسكٍ، وهو سفينتهم إلى النجاةِ والفلاحِ.

وهذه الصفات تحتاج إلى ما يحتاج إليه الصَّاعِدُ من جَهْدٍ وكَدٍّ. إنها لا تُزَيَّنُ للناسِ فيُقْبِلون عليها؛ حُبًّا في الشهوات والملذّات، وإنما هي قيمةٌ باقيةٌ يجدها الإنسانُ في ساعةِ الشدةِ ويرضاها؛ رغبةً في العاقبة، وإنْ آثَرَ الناسُ من حوله زهرةَ العاجلة.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾ (٢)

---

(١) البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين، رقم ٥٦٢٩.

(٢) آل عمران: ١٤ – ١٧.

ذهبت الزينةُ، وبقِيَت القيمة. ذهبت القناطيرُ المقنْطَرَة من الذهبِ والفضةِ والخيلِ المسوَّمَةِ والأنعامِ والحرث. وبَقي الصبرُ والصدقُ والقنوتُ والإنفاقُ والاستغفار.

صفاتٌ حَمَلت أصحابَها إلى جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، وتخلَّفت الزينةُ عن صاحبِها، فلم تُؤْنِس له وحشةً في قبرٍ، ولم تُحقِّق له ثواباً، إلاَّ بإخضاعِها للباقيات الصالحات.

لذا نرى الرسولَ ﷺ - من أوَّلِ أمْرِه - يدعو إلى إبرازِ خصائصِ الفطرةِ في نفس الإنسان؛ ليسمو بإيمانه وفضائله وتقواه، لا بِحَسَبِه ولا بِنَسَبِه، ولا بِعَرَضٍ من أعراضِ الحياة.

وبذلك تميَّزت صفوفُ أتباعه، وعَرَفَ القريبُ والبعيدُ خصائصَ هذه النفوس، وحكم العارفون بسُنَن الله في خَلقه بأنَّ أصحاب هذه الصفات مُستَخْلَفُون ومنتصرون.

هكذا عَرَفَ (هِرَقْلُ) عندما سأل عن رسولِ الله ﷺ، وما يدعو إليه.

قال لأبي سفيان: « مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ » فقال أبو سفيان: « يَقُولُ: اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ. وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصِّلَةِ ».

وظَلَّ (هِرقلُ) يسألُ وأبو سفيان يُجيب، ومن جميع إجابته أدرك (هرقلُ) ما عليه الرسول ﷺ، وما يدعو إليه من صفاتٍ، فقال كلمَتَه: « إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ » (١)

---

(١) البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم ٦.

قال ذلكَ والرسول ﷺ لم يبرحْ مكةَ بَعْدُ، ولم يَقْوَ أصحابُه إلى القَدْرِ الذي يجعل البعيدَ يحكم بانتصارهم وتفوّقهم، ولكن (هرقل) حَكَمَ بما سمع من أخلاقٍ وصفاتٍ وأحوالٍ تُحقّقُ لأصحابها تفوُّقاً وانتصاراً على مَرِّ الأيام.

« وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّدْقِ، وَالْعَفَافِ، وَالصِّلَةِ » صفاتٌ تُحقّقُ الطمأنينةَ في النفسِ، والبِرَّ في روابط الأسرة والمجتمع، والأمنَ في حياة الناس على النفس والمال والعِرض.

صفاتٌ يتميَّزُ بها الناسُ، وتُعرَفُ أقدارُهم. والله من وراء القصد يُحاسِبُ على دوافع الأعمال، ويأجُر على صِدق النيَّة، ولكُلِّ امرئٍ ما نَوَى.

فليس أمام الناس إلاَّ الصدق إنْ هُم أرادوا لأنفسهم فوزاً في عاجلِ أمرهم وآجله.

وهل نجا الثلاثةُ الذين خُلّفوا إلاَّ بصدقهم ؟

وهل هلك مَن هلك – من أهل النفاق – إلا بكذبه ؟

وهل نترك قضيةَ الإيمان لدعوى الناسِ دون ابتلاءٍ يكشف حقيقتَهم، ويُظهرُ أمرهم ؟ ﴿ **الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣** ﴾ (١)

« إِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ » (٢)

---

(١) العنكبوت: ١– ٣.

(٢) الترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، رقم ٢٤٤٢، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وكم من مكانةٍ عاليةٍ نَالَهَا الصادقونَ بصِدْقِ نيَّاهم، وبلغوا منازل الشهداء وهم على فراشهم.

روى مسلمٌ عن أبي ثابت، سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: « مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ » (١)

قال (كعبُ بن مالك) وهو من الثلاثة الذين خُلِّفوا، وتاب الله عليهم، قال:

« يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ » (٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ (٣)

في الحديث المتفق عليه، عن أبي خالد حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتفرَّقَا - أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتفرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا، بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا، مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا » (٤)

الصدقُ صفةٌ يُوصَفُ بها الرجلُ، وتُوصَفُ بها المرأةُ ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾

فهل يعي ذلك دُعَاةُ المساواةِ، فيطلبون المساواةَ في فضائلِ أعمال، لا في تشبُّهِ الرجال بالنساء، أو تشبُّه النساءِ بالرجال ؟!

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله، رقم ٣٥٣٢.
(٢) مسلم: كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم ٤٩٧٣.
(٣) التوبة: ١١٩.
(٤) البخاري: كتاب البيوع، باب إذا بيّن البيّعان ولم يكتُما ونصحا، رقم ١٩٣٧.

٥

أخي المسلم:

إنَّ فَتْرَةَ الحياةِ الدنيا تحتاجُ إلى (صَبْرٍ)؛ للفوزِ في امتحانِها وابتلائِها.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ (١)

وتلازُمُ الحقِّ مع الصَّبْرِ ضروريٌّ لإقامةِ الحَقِّ.

والتواصي عليهما من دلائلِ الإيمان، ومن أسبابِ النجاةِ من الخسران.

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ (٢)

في دارِ الامتحانِ والاختبارِ يُبْتَلَى الإنسانُ بصفوفٍ متعدِّدةٍ ومُتباينةٍ من: العُسْرِ واليُسْرِ، والشِّدةِ والرخاء.

وفي المعاملةِ اليومية يَلْقَى الإنسانُ من الناس ما يرضاه ومَا لاَ يرضاه. ذاكَ يُحْسِنُ، وهَذا يُسيء.

في البيت، وفي الشارع، وفي العمل، وفي الإقامة، وفي السفر، يَلْقَى الإنسانُ من العوارض - التي يُمْتَحَنُ بها صَبرُه - الكثيرَ مِمَّا يضيق به الصَّدْرُ، أو تنشرحُ به النفسُ.

وكُلُّ عارضٍ - مهما كان نوعُه - يحتاجُ إلى ضوابط نفسيةٍ تُقابِل الحَدَثَ بما

(١) محمد: ٣١.
(٢) العصر: ١- ٣.

يُناسبه، بحيث لا تقع النفسُ صريعةَ فَرَحٍ مُفْرِط، أو يَأْسٍ مُدمِّر.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

إن الاعتدالَ في مواجهةِ الأحداث والعوارض يحتاجُ إلى (الإيمانِ بالقَدَر)، ومع الإيمان بالقَدَر يقومُ الصبرُ - المحتَسَب في النفس - مقامَ الجندي المرابِط، يذودُ عن حِمَى النفسِ، ويجعلها ثابتة في البأساءِ والضرَّاء، وحين البأس.

والصبرُ لازمٌ للرجل والمرأة على حَدٍّ سواء. وبه وُصِفَ الرجلُ، كما وُصِفَت المرأةُ في الآية الجامعةِ لصفات الخير من الرجال والنساء ﴿ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ ﴾.

وإن وُجِدَ الوصفُ للرجال في غيرِ هذه الآية، فهو يَعُمُّ الرجالَ والنساءَ معاً، وهو من باب (التغليب) لا من بابِ (الاختصاص) إلاّ مَا دَلَّ الدليلُ عليه.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (٢)

هي بُشْرَى للصابرين والصابرات؛ لأنَّ المرأة تُبْتَلى كما يُبْتَلَى الرجلُ، وتُصابُ كما يُصابُ، وتُؤجَرُ كما يُؤْجَرُ، وتُؤْمَرُ كما يُؤْمَرُ.

---

(١) الحديد: ٢٢، ٢٣.
(٢) البقرة: ١٥٥- ١٥٧.

في الحديث المتفـــق عليه، عن أبي زيد أسامة بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « أَرْسَلَتْ ابْنَةُ (١) النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأْتِنَا، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلَامَ وَيَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ. فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ (٢)، قَالَ: حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ: كَأَنَّهَا شَنٌّ (٣)، فَفَاضَتْ (٤) عَيْنَاهُ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا ؟ (٥) فَقَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ » (٦)

وفي رواية: « قَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ يَضَعُهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ » (٧)

وفي صحيح البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي. قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي.

---

(١) قَالَ الْحَافِظ: هِيَ زَيْنَب. وفي رواية: « أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأُمَيْمَةَ ابْنَةِ زَيْنَبَ وَنَفْسُهَا تَقَعْقَعُ » أحمد: مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث أسامة بن زيد ﷺ، رقم ٢٠٧٨٠.

(٢) تَقَعْقَع: أَيْ تَضْطَرِب تَتَحَرَّك وَلا تَثْبُت عَلَى حَالَة وَاحِدَة. وفي رواية: « فَأَقْعَدَهُ فِي حَجْرِهِ وَنَفْسُ الصَّبِيِّ جُئِثُ » البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: وأقسموا بالله جهد أيمانهم، رقم ٦١٦٣. وفي رواية أخرى: « وَرُوحُهُ تَقَلْقَلُ فِي صَدْرِهِ » ابن ماجة، كتاب ما جاء في الجنائز، باب ما جاء في البكاء على الميت، رقم ١٥٧٧.

(٣) الشَّنَّة: الْقِرْبَة الْبَالِيَة، وَمَعْنَاهُ لَهَا صَوْت وَحَشْرَجَة كَصَوْتِ الْمَاء إِذَا أُلْقِيَ فِي الْقِرْبَة الْبَالِيَة.

(٤) فَاضَتْ: أَيْ سَالَتْ. وَالْمَعْنَى نَزَلَ الدَّمْع عَنْ عَيْنَيْ رَسُول اللَّه ﷺ.

(٥) وفي رواية: « يا رَسُولَ اللَّهِ أَتَبْكِي ؟ أَوَلَمْ تَنْهَ عَنْ الْبُكَاءِ ؟ » أحمد: مسند الأنصــار رضـــي الله عنهم، حديث أسامة بن زيد ﷺ، رقم ٢٠٧٨٠.

(٦) البخاري: كتاب الجنائز، رقم ١٢٠٤.

(٧) البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب قول الله تعالى: وأقسموا بالله جهد أيمانهم، رقم ٦١٦٣.

وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى »[1]

« وَأَصْلُ الصَّدْمِ: ضَرْبُ الشَّيْءِ الصُّلْبِ بِمِثْلِهِ، فَاسْتُعِيرَ لِلْمُصِيبَةِ الْوَارِدَةِ عَلَى الْقَلْبِ. قَالَ الْخَطَّابِيُّ: الْمَعْنَى أَنَّ الصَّبْرَ الَّذِي يُحْمَدُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مَا كَانَ عِنْدَ مُفَاجَأَةِ الْمُصِيبَةِ، بِخِلافِ مَا بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ عَلَى الأَيَّامِ يَسْلُو. وَحَكَى الْخَطَّابِيُّ عَنْ غَيْرِهِ: أَنَّ الْمَرْءَ لا يُؤْجَرُ عَلَى الْمُصِيبَةِ؛ لأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ صُنْعِهِ، وَإِنَّمَا يُؤْجَرُ عَلَى حُسْنِ تَثَبُّتِهِ وَجَمِيلِ صَبْرِهِ »[2]

الصَّبْرُ صفةٌ عظيمةٌ تَعْلُو بصاحِبِها، وبه - وبالصلاةِ - يستعينُ الإنسانُ على تحقيقِ ما أُمِرَ به، واجتنابِ ما نُهِيَ عنه.

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[3]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[4]

إنَّ ما أُمرنَا به أو نُهينا عنه، يحتاجُ إلى صَبْرٍ على الطاعة، وصَبْرٍ عن المعصية. وقد جعل الله أجْرَ الصابرين بغيرِ حساب.

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[5]

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم ١٢٠٣.

(٢) فتح الباري: ١٥٠/٣.

(٣) البقرة: ٤٥.

(٤) البقرة: ١٥٣.

(٥) الزمر: ١٠.

أخي المسلم: الصبر هو الإجابةُ الظافرةُ الفائزةُ عن ضرَّاء الحياةِ، والشُّكْرُ هو الإجابةُ الظافرةُ الراشدةُ عن سرَّاء الحياة. والأعراضُ - من سرَّاءَ وضرَّاء - تذهب، ويبقى الصبرُ حياءً، ويبقى الشكرُ رِزقاً مُمتدّاً لِمَن شَكَرَ.

روى مسلم، عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ » (١)

﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ بُشْرَى لأصحابِ هذه الصفة من الرجال والنساء.

﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢)

في الصفات التي يفوزُ صاحبها بالجنةِ، لا في الزينةِ الذاهبة والمتاع الزائل.

في الحديث المُتَّفَقِ عَلَيْه عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « أَلا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ: هَذه الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ، أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي. قَالَ: إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ. فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ لا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا لَهَا » (٣)

اللهم إنا نسأَلُكَ رضاكَ والجنة، ونعوذُ بك من سخطك والنار.

---

(١) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم ٥٣١٨.

(٢) المطففين: من الآية ٢٦.

(٣) البخاري: كتاب المرضى، باب فضل من يُصرع من الريح، رقم ٥٢٢٠.

٦

أخي المسلم:

الخشوعُ صفةٌ يُوصَفُ بها الرجلُ، كما تُوصَفُ بها المرأةُ، وقد جاء في الآية الجامعةِ لصفات الخَيِّرينَ من الرجال والنساء ﴿ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ ﴾

وفى الخشوعِ سُكونٌ وطمأنينةٌ، وفيه تواضعٌ، وفيه ضَراعةٌ، وإذا ضَرَع القلبُ خَشعَت الجوارح.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ ﴾ (١)

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ۝٤٥ ﴾ (٢)

قال سفيانُ الثوري: سألتُ الأعمشَ عن الخشوعِ، فقال: يا ثوري أنت تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع ؟! سألتُ إبراهيمَ النخعيَّ عن الخشوع، فقال: ((أعيمش، تُريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع ! ليس الخشوعُ بأكل الخشن، ولبس الخشن، وتطأطؤ الرأس، لكنَّ الخشوعَ أن ترى الشريفَ والدنيء في الحقِّ سواء، وتخشع في كُلِّ فرضٍ افتُرِضَ عليك)).

ونظر عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى شابٍ قد نكَّس رأسَه، فقال: ((يا هذا، ارفَعْ رأسك؛ لا تُمِتْ علينا دينَنا، إنَّ الخشوعَ في القلوب، ليس الخشوعُ في الرقاب))

وروى الحسنُ أن رجلاً تنفَّس عند عمر الخطاب كأنه يَتحازَن، فلكزه عمرُ -

---

(١) المؤمنون: ١، ٢.

(٢) البقرة: ٤٥.

أو قال: لَكَمَهُ. وكان عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا تكلَّم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع، وكان هو الناسكُ حقاً.

فمَن أظهر للناسِ خشوعاً فوق ما قلبه، فإنما أظهر نفاقاً على نفاقٍ.

وقد يُقابَل خشوعُ القلب بقسوته، فقلبُ المؤمن ليِّنٌ رقيقٌ، وقلبُ الجاحد قاسٍ غليظٌ. والقلبُ إذا قسا كان كالحجارة أو أشد، والنفوس إذا بَعُدَت عن هدايةِ الله، وطالَ عليها الأَمَد، قَسَتْ، فلا تقبل موعظةً، ولا تلينُ بوعدٍ أو وعيد.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (١)

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢)

والنفوسُ لا تحيا ولا تلين إلاَّ بوحي الله وآياته، كالأرض الميتة لا تحيا إلاَّ بما يأتيها من غيثٍ، وما ينـــزل عليها من ماء.

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: ٧٤.
(٢) الحديد: ١٦.
(٣) الحديد: ١٧.

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟
بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ
يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ
وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٢)

والقلوب التي لا تخشع لذكر الله وما نزل من الحقِّ، قد أُصيبت، أو أُغْلفَت، أو أُغلِقَت؛ بسبب الكُفر أو الذنوب والآثام.

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٤)

وأمراضُ القلوب متنوعة، منها: ما هو بالشبهات، ومنها ما هو بالشهوات. وكلاهما يُورِثُ القسوةَ، ويُبْعِدُ الخشية.

فليحذر المسلمُ من قسوةِ القلب بعد لِينه؛ فإن القلبَ سريعُ التقلُّب، فإذا طال عليه الأمدُ - بلا تذكيرٍ أو تذكُّرٍ - أظلمَ وأعْتمَ، وقَسَى وتبلَّدَ.

---

(١) الإسراء: ١٠٦ - ١٠٩.
(٢) الحشر: ٢١.
(٣) الأنفال: من الآية ٢٤.
(٤) الكهف: من الآية ٢٨.

ولا بُدَّ من إيقاظ القلب بالمداومة على ذِكر الله، والقيام بما أوجبه؛ حتى يخشع ويضرع.

والقرآن هو خيرُ ما يُخاطَبُ به القلب، فليقبل عليه، وليتدبره؛ لتحيا به النفوسُ وتستجيب لأمر ربِّها.

والقلبُ إذا خشعَ لكلام ربِّه، خشعت الجوارح، وتأدبت بأدب الله.

وكم حوَّل القرآنُ - بفضل الله - نفوساً من حالٍ إلى حال، وكم فاضت أعينٌ من الدَّمْعِ عند سماعه، ووَجِلَت قلوبٌ.

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١)

والرسول ﷺ يسمع القرآنَ - وهو مَن أُنْزِلَ عليه - فلا يملك دمعَه.

في الحديث المتفق عليه، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: « قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: اقْرَأْ عَلَيَّ. قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟! قَالَ: فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي. فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾ ﴾ (٢) قَالَ: أَمْسِكْ. فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ » (٣)

أخي المسلم: الخشوع صفةٌ يُوصَفُ بها الرجلُ، كما تُوصَفُ بها المرأةُ

(١) المائدة: ٨٣.

(٢) النساء: ٤١.

(٣) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد، رقم ٤٢١٦.

﴿ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾ وكم من نسوةٍ سَبَقْنَ الرجالَ في مضمار الفضائل، ومنهُنَّ مَن ضربَهُ الله مَثَلاً للذين آمنوا؛ لخضوعِها لربِّها، وإقبالِها على طاعته.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾ (١)

في الفضائل والأخلاق فليتنافس المتنافسون؛ فإن التنافسَ عليها يُحقِّقُ البرَّ بين الناس، ويصونُ المجتمعَ من الدمار والهلاك. أمَّا التشبُّه، تشبُّه الرجال بالنساء، أو تشبُّه النساء بالرجال - فيما خُصَّ به أو خُصَّتْ به - فهو جناية على الفطرة، وتدمير للرجل والمرأة، والأسرة والمجتمع.

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: « لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُخَنَّثِينَ مِنْ الرِّجَالِ، وَالْمُتَرَجِّلاتِ مِنْ النِّسَاءِ » (٢)

اللهم إنَّا نُحِبُّ رِضَاكَ، فَأَعِنَّا على ما يُرضِيك عنَّا.

* * *

(١) التحريم: ١١.

(٢) البخاري: كتاب اللباس، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت، رقم ٥٤٣٦.

٧

أخي المسلم:

إن من أعظمِ نِعَمِ الله تلك التي تلازمُ الإنسانَ في جميع مراحل سَيره، وهى نعمةُ (الإسلام) إنها نعمةٌ مُمتدَّةٌ، لا يصلُح بها أمرُ الدنيا فحسب، بل يصلح بها أمرُ الدنيا وتُنال الآخرة.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (١)

بهذه النعمة تُعصَمُ الأمةُ من الفُرقة والهوان، وتُنقَذُ من العذاب.

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (٢)

بهذه النعمة كُرِّمَ الرجلُ، وكُرِّمَت المرأةُ، وتبوأت المكانة التي خُلِقَت لها.

نعمةٌ من الله، لا مِنَّةٌ من الخَلق، وتكريمٌ من الخالق، لا هِبَةٌ من المخلوق.

ومَن يزعم من البشر - في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ - أنه حريصٌ على المرأة، وَفيٌّ بحقوقها، بعيداً عن شرع الله، فقد ادَّعى لنفسه ما لم يستطع، وقد ضلَّ وهو يظُنُّ أنه يُحسِنُ صُنعاً.

---

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

هذا مع حُسْنِ النيَّةِ والقصد.

إن الرجلَ والمرأة يُحَدِّد حُقوقَهما مَن خَلَق، وهو يعلم مَن خَلَقَ ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝ ﴾ (١)

وأمَّا البشرُ فَلِعَجزهم قد يقصد أحدُهم الإحسانَ إليك، فلا يُحقِّقه، وقد يجهل ما يصلح لك، فيُسيء، وقد يكون صاحبَ غَرَضٍ فيُبدي المعروفَ وهو يُضْمِرُ المنكرَ.

وفي المخلوقات قد ترى (الدَّبَّةَ) وهي تُبْعِدُ الذبابةَ عن وَلِيدِها فتقتله !

كم، وكم في مخلوقاتِ الله من نَقْصٍ في الإحاطةِ وسُوءِ التقدير، وبُعْدٍ عن الجادة وعن سواء السبيل. فمَن يزعم أنه يستطيع - بفِكره - أن يُحدِّدَ الحقوق، ويُبيِّن الواجبات، ويفي بتكريم الإنسان، فقد ادَّعى ما ليس له، ونَسِيَ جهلَه وعجزَه وضعفَه وموتَه. والجنُّ والإنسُ يموتون، والله حيٌّ لا يموت، والجنُّ والإنسُ يجهلون، والله قد أحاطَ بكل شيءٍ علماً، والجنُّ والإنسُ يعجزون ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝ ﴾ (٢)

والجنُّ والإنسُ يُطْعَمُونَ، والله يُطْعِمُ ولا يُطْعَم.

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ

---

(١) الملك: ١٣، ١٤.

(٢) فاطر: من الآية ٤٤.

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]

فعلى المرأةِ أن تنعَمَ بعطاءِ الخالق، وأن تحذرَ من عَبَثِ المخلوق وادِّعائه؛ فإن كُلَّ ما يُقالُ عن حقوق المرأة - بعيداً عن الإسلام - ادِّعاءٌ إنْ سَلِمَ من سُوءِ النيَّةِ والقصد، فلن يَسْلَمَ من العجز والجهل والقصور.

ولن تُصانَ المرأةُ في كرامتها، وفي أُمومَتِها، وفي عاقبتِها إلاَّ بتنفيذِ شَرْعِ الله واتِّباعِ أمره.

ومع الآية الجامعةِ لصفات الخَيِّرِينَ من الرجال والنساء؛ لنقفَ عند صفة من الصفات، وهي صفةُ (التَّصدُّق) التي يُوصَفُ بها الرجلُ، كما تُوصَفُ بها المرأةُ ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ وتؤجَرُ كما يؤجَرُ، والله يضاعف لمن يشاء.

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[2]

وهل يتصدَّقُ إلاَّ مَن له أهليةُ التملُّك، وحُريةُ التصرُّف ؟

إنَّ المرأةَ - في الإسلام - تملك أصنافَ المال بكافَّةِ أسباب التملك المشروعة، ولها الحقُّ في أن تمارسَ التجارةَ وجميعَ وسائل الكسب المباح، فهي تملك، وترِث،

---

(١) الملك: ٢٠- ٢٤.
(٢) الحديد: ١٨.

وتَهب، وتُوصِي، وتتصدَّق، وتتصرَّفُ في مالِها بالطرق المشروعة، دونَ سلطانٍ لأحدٍ عليها، ما دامت بالغةً رشيدةً.

والزوجُ مُلْزَمٌ بالإنفاق عليها مهما كانت درجةُ ثرائِها وغِناها.

وما عليها إلاّ ما تقدِّمه بطِيبِ نفسٍ منها.

وهذا القَدْرُ من الحقوق - في الجانب المالي - لم تحصل عليه المرأةُ بعيداً عن الإسلام، وَلَسْنَا في حاجةٍ للمقارنة بين ما كانت عليه وما يكون بعيداً عن الإسلام، وما صارت عليه مع الإسلام؛ إذْ لا مقارنةَ بين عطاءِ الخالق ورحمته، وبين إمساك الإنسان وضيقه وأَثَرته.

وكُلُّ ادِّعاءٍ - في أيِّ مجالٍ - عن تكريم المرأة وحقوقِها "من أصحاب القوانين الوضعية" قاصِرٌ عن الوصول إلى الدرجةِ التي ينبغي أن تكونَ عليها المرأةُ، مِمَّا بيَّنَهُ الشرعُ وأَمَرَ به ودعا إليه.

والحديثُ عن قضايا المرأة - بين فترةٍ وأخرى - يقعُ الاختلافُ فيه تَبَعاً للاختلاف في مفهوم التكريم، ومعنى الحقوق.

فالذين يريدون المرأة أمامَ أعيُنِهم لنـــزَواتِهم وشهواتهم في كُلِّ عملٍ وكُلِّ مجالٍ، غيرَ الذين يريدونها أُمًّا فاضلةً لمجتمعٍ كريمٍ.

هؤلاء يرون التكريمَ لها في صيانتها، ورعاية فضائِلها، وحمايتها من عَبَثِ العـــابثين، وإفساد المفسدين.

وأولئك يرونَها مَسْلاةً ومَلْهاةً لمجالسهم وشهواتهم.

والمرأةُ أهلٌ لكُلِّ تكريمٍ. والوصيةُ بها مُقدَّمة على الوصية بالرجل، فليس لأحدٍ أن يعتدي عليها بنظرةٍ فاجرةٍ، وليس من حقِّها أن تعتدي على عِفَّةِ الشباب بما ترتديه من مفاتنِ الزينة، وما تُظهره من دواعي الفتنة.

على أنَّ هذا الجانب قد أُعطي حقَّه بضوابط الزواج المشروع، التي تُبْنَى به الأسر، وتنشأ الأجيال.

وما يقع من اضطرابٍ مصدرُه تعسيرُ الزواج بوسائلَ مُفتَعَلَة، مع أن الشرع قد يَسَّرَه، ولم يجعل فيه حرجاً. ومن واجب المجتمع المسلم أن يُيَسِّرَ أسبابَ الحلال؛ فإن التعسير مَدْعَاةٌ إلى الوقوع في الحرام.

ومع تحديد مفهومِ التكريم ومعنى الحقوق، يجد الناسُ أنفسَهم - عند الإنصاف - أمام شرع الله، يشكرون نعمةَ الله ولا يجحدون، ويجدون وفاءَ الحقوق والواجبات للرجال والنساء جميعاً يرون مجتمعاً فاضلاً تؤدِّي فيه المرأةُ دورها، عاملةً راشدةً، بارَّةً متصدِّقة.

وميدان الفضائل مفتوحٌ للجميع، تعلو فيه المرأةُ بعلمها وفضائلها وأخلاقها، وتسمو بأعمالها.

ولم أرَ صفةً من صفات الخير دُعِي إليها الرجل ولم تدع إليها المرأة، ولم أرَ صفةً من صفات الشرِّ نُهيت عنها المرأة ولم يُنْهَ عنها الرجلُ؛ فهُما متعاونان على البِرِّ والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

٨

أخي المسلم:

في حديثٍ سابقٍ قلتُ: إنّ الحديثَ عن قضايا المرأة - بين فترةٍ وأخرى - يقعُ الاختلاف فيه تَبعاً للاختلاف في مفهومِ التكريم، ومعنى الحقوق. فالذين يريدون المرأة لنـــزواتِهم وشهواتِهم، غير الذين يَرَوْنَها أُمّاً فاضلةً لمجتمعٍ كريم.

والله - جلّ وعَلاَ - يُكرِّمها في كتابه، ويضربها مَثَلاً للذين آمنوا، بفضْلِها، وعِملها، وسُموِّها، وصبرها، وهي تؤمنُ بوعْدِ ربِّها، ولا تُستَخفُّ من الذين لا يوقنون.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

وميدانُ الفضائل مَيْسُورٌ للجميع، ومعالي الأمور يقصُدها أصحابُ العزيمة الراشدة من الرجال والنساء « والله يحبُّ معالي الأمور، ويُبغِضُ سفسافها (٢) » (٣)

والله - جلّ وعَلاَ - قد رَضِيَ لنا مكارمَ الأخلاق، وكَرِه سفاسِفَها. فلنَتعاوَن جميعاً على السموِّ والصعودِ، لا على السقوط والهبوط، ولنتنافَس على مكارمِ الأخلاق؛ فإن التنافُسَ عليها يزيدها ولا يُنقصها، وبها نتعارف ولا نتناكر، ونتراحم ولا نتدابر، والتنافُس على غيرها قد يُفْسِدُ الروابط، ويقطعُ ما أمر الله به أن يُوصَلَ.

---

(١) التحريم: ١١.
(٢) السفاف: الردئ من كلّ شيء. وسفاسف الأخلاق: رديئها.
(٣) المعجم الكبير للطبراني: ٣/١٣١، رقم ٢٨٩٤.

فلنتنافَس على الفضائل، ولنُرَبِّ النَشءَ عليها؛ لنضمنَ لأُمَّتنا وجودَها وحياتَها وامتدادَها؛ فإنما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيَت، فإن هُمُ ذهبت أخلاقُهم ذهبوا.

ومع الآيةِ الجامعة لصفاتِ الخَيِّرينَ من الرجال والنساء؛ لنقِفَ على صفةٍ من الصفاتِ العالية الرفيقة، التي يتجرَّدُ فيها المجتمعُ لعبادة ربِّه، ويسمو بعزيمته وصَبره.

صفة وُصِفَ بها الرجلُ، كما وُصِفَت بها المرأةُ ﴿ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ ﴾ (١)

وليس في الصومِ رياءٌ، ولذا جاء في الحديث: « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلاَّ الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ » (٢)

والصومُ إمساكٌ. وفي الإمساك تربيةٌ، وضَبْطٌ للنفس أن تمضيَ وراءَ كُلِّ ما تشتهي وترغب. إمساكٌ عن شهوات: الطعام، والشراب، والنكاح، والكلام.

وَكَمْ أسَرَتْ الشهواتُ نفوساً، ونكَّست رؤوساً، وَكَم أوْدَى اللسانُ بصاحبِه، وأَلْقَت به في النار حصائدُه.

فليُمسك المسلمُ فرضاً في رمضان مع جميع إخوانه؛ لينصَهِرَ الكُلُّ في بَوْتَقَة الإخلاص والطُّهر، وليُمسك - ما استطاع - في غيره بضوابط الاتِّباع؛ لتصفو النفسُ لرسالتِها، وتحيا لغايَتِها، ولا تُؤْسَرُ بشهوةٍ، أو تُحْكَم بِنَـــزْوَةٍ.

والميدان مُيَسَّرٌ للرجل والمرأة ﴿ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ ﴾

والصوم صَبْرٌ. ومع الصبرِ أجرٌ، أيُّ أجرٍ.

---

(١) الأحزاب: من الآية ٣٥.

(٢) البخاري: كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك، رقم ٥٤٧٢.

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١)

إن في الجنة باباً يدخل منه الصائمون، ولا يدخل منه أحدٌ غيرهم، سُمِّيَ باسم له دلالته في الجزاء والعطاء لمن ترك طعامَه وشرابَه وشهوتَه من أجل ربِّه.

في الحديث المُتَّفَق عليه، عَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ. يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ ؟ فَيَقُومُونَ، لا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ » (٢)

وروى مسلمٌ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلاَّ بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنْ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » (٣)

أبوابٌ من الخير مُفَتَّحَة للناسِ جميعاً، فليستبقوا الخيرات، وليتنافسوا عليها؛ فإنَّ فيها سَعَةً وفيها رحمةً.

والمرأةُ والرجلُ كلاهُما مأمورٌ بالخير، مَنْهِيٌّ عن الشرِّ، فَبابُ المساواة والتنافس رَحبٌ فسيحٌ، يستوي الرجل والمرأة في المعروف، وفي الدعوة إلى جميع أبواب الخير، وما يؤدِّي إليه، ويستويان في الكَفِّ عن المنكر، واجتناب الشرِّ والفساد، وما يؤدي إليهما.

وطلبُ المساواة في غير مساواةٍ - فيما خُلِقَ له، أو خُلِقَت له - دمارٌ وانتكاسٌ،

---

(١) الزمر: من الآية ١٠.

(٢) البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم ١٧٦٣.

(٣) مسلم: كتاب الصيام، فضل الصيام في سبيل الله لمن يطيقه، رقم ١٩٤٨.

وليس من مصلحةِ الرجل، ولا من مصلحة المرأة أن تُدمَّرَ أسوارُ العِفَّةِ، وأن تترجَّلَ المرأةُ، أو يُخَنَّثَ الرجلُ، في ظِلِّ شعاراتٍ بَلْهَاءٍ تطلب المساواةَ في غير مساواة.

للمرأة حقُّها وواجبُها، وللرجل حَقُّه وواجبه. ولا تصادمَ في الحقوق، ولا منافاةَ بين الواجبات إنْ نحنُ التزمنا شرعَ الله، ورضينا بحُكْمِه.

وكُلُّ نزاعٍ أو ضلالٍ يأتي من دوافع الهوى، ومجاوزةِ الحدود.

﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ (١)

عَشْرُ صفاتٍ في آيةٍ واحدةٍ، للرجل وللمرأة ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (٢)

فكم حقَّقْنَا منها في مجالِ المساواة والتنافس ؟

كَمْ حقَّقْنَا من هذه الصفات، وما تتطلبه من تربيةٍ وإعدادٍ، في أدبٍ وصَمْتٍ، وحكمةٍ ورُشْدٍ ؟

نريد أن نأخُذَ أنفسنا بالإيجابيات، وألاَّ نُقَلِّدَ غيرَنا في السلبيات.

---

(١) الطلاق: من الآية ١.

(٢) الأحزاب: ٣٥.

والإيجابياتُ تحتاج إلى تحقيقِ هذه الصفات التي تُرَبِّي العزائمَ، وتعلو بالإنسان من سفاسِفِ الأمور، وتأخذ بيده إلى مَعَالِيها.

لمصلحةِ مَن تَهْبِطُ مجتمعاتنا الإسلاميةُ بالنـــزوات والشهوات، وأن تُسلَّطَ عليها، ويعلو غيرُها بالجَدِّ والعمل، والسَّبْقِ والتنافس على الإنتاج، والتفوق في شتى المجالات ؟!

فلنأخُذ من الغَيْرِ ما كان إيجابياً يصلح لجميعِ الأمم والشعوب، ولْنَدَع ما كان سلبياً، سواء كان مِنَّا أو من غيرنا؛ فالحكمةُ ضالَّةُ المؤمن. ونتاجُ العلم عملت فيه جميعُ الأمم، ولم يكن وليدَ ساعةٍ، بل ثمرةُ جهودِ الأجيال منذُ عَلَّم الله آدمَ الأسماءَ كُلَّها، وإلى يومنا هذا. لاحِقٌ يفيدُ بجهدِ سابقٍ، ويبني عليه إلى أن يَرِثَ الله الأرضَ ومَن عليها.

والامتدادُ مرهونٌ بصفاتٍ، صفاتِ الخير التي يدعونا القرآنُ إليها، ويُنشِّئنا عليها؛ لتُصَان نتائج العلمِ لمصلحة الإنسان حيث كان، فلا ندمِّرُ ما عمَّرنا، ولا نسوقُ الفناءَ إلى ما شيَّدنا من بناء.﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾[1] صفاتٌ في الآية الخامسة والثلاثين، فلنحفظها كمقوِّماتٍ أساسية لحياةِ أُمَّتِنا. بها وعليها يقومُ الجدُّ والعملُ، وتقوم النهضةُ، وتُحترَمُ الحقوقُ، وتُصانُ الواجبات.

---

(١) الأحزاب: ٣٥.

٩

أخي المسلم:

مع الآية الجامعةِ لصفاتِ الخَيِّرينَ من الرجال والنساء، وهي الآيةُ الخامسة والثلاثون من سورة "الأحزاب"، ومع الصِّفَةِ التاسعةِ منها، وهي ﴿ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ ﴾

إنها صفةٌ من صفاتِ المؤمنين الذين قال الله فيهم: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ۝١١ ﴾ (١)

نِعْمَتْ الصفاتُ صفاتٌ تُوَرِّثُ صاحبَها (الجنة) برحمةٍ من الله وفضلٍ ﴿ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ ﴾

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ » (٢)

---

(١) المؤمنون: ١- ١١.

(٢) البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم ٥٩٩٣.

وروى الترمذيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ » (١)

ولكي يحفظَ الإنسانُ نفسَه من الوقوع فيما حرَّم الله، عليه أن يجتنب المقدِّمات التي تؤدِّي إلى الوقوع في الحرام ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢)

مقدِّماتٌ تُؤدِّي إلى الفتنة، وتُغري بالفساد، وتُطْمِعُ أصحابَ القلوب المريضة. ينهى الله عنها، ويأمُرُ بضدِّها. ويأجُرُ على كُلِّ شيء من كَفٍّ أو فِعلٍ؛ رحمةً منه وفضلاً، ويضاعف الأجرَ لِمَن ذَكَرَ ربَّه فَعَفَّ، وتذكَّرَ حسابَه، فَصَانَ نفسَه وكفَّها عن المعصية؛ طمعاً في ثوابِ الله؛ وخشيةً من عذابه.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ

(١) الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان، رقم ٢٣٣٣، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حسنٌ غَرِيبٌ
(٢) النور: ٣٠، ٣١.

بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

ولكي تحفظ المرأةُ ويحفظ الرجلُ ما أمر الله به أن يُحفَظ، لا بُدَّ من اجتناب الدَّواعي والأسباب، وحِفْظِ الجوارح والحواس من التطلُّعِ أو الاستجابة إلى ما لا ينبغي. فغَضُّ البصرِ، وصيانةُ السمعِ، وحِفظُ اللسانِ، يُعينُ المرءَ على حِفْظ ما بين رِجليه. فالعينان زناهُما النظر، والأُذُنانِ زِناهما الاستماع، واللسانُ زِنَاهُ الكلام، واليدُ زِنَاهَا البطش، والرِّجْلُ زِناهَا الخُطَى، والقلبُ يهوى ويتمنَّى، ويُصدِّقُ ذلك الفَرْجُ أو يُكذِّبه.

روى الإمامُ أحمدُ في مسنده، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ مِنْ الزِّنَا. فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ. وَالْيَدَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْبَطْشُ. وَالرِّجْلانِ يَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا الْمَشْيُ. وَالْفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْقُبَلُ. وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى. وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ » (٢)

وما من شيءٍ يُحققُ العِفَّةَ، ويصُونُ الحُرُماتِ إلاَّ دعى الإسلامُ إليه ورغَّبَ فيه، وما من شيءٍ ينالُ من عِفَّةِ الرجال أو النساء، أو يُوقِعُ الفسادَ إلاَّ نهى عنه، وحذَّر منه.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ. قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ » (٣)

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) أحمد: باقي مسند المكثرين، رقم ٨١٧٠.

(٣) مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات، وإعطاء الطريق حقه، رقم ٣٩٦٠.

وروى أبو داود، عَنْ جَرِيرٍ قَالَ: « سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الْفَجْأَة. فَقَالَ: اصْرِفْ بَصَرَكَ » (١)

وروى أبو داود والترمذيُّ، عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها قالت: « كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وعنده وَمَيْمُونَةَ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُوم، فَدَخَلَ عَلَيْه، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أُمِرْنَا بِالْحِجَاب. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: احْتَجِبَا مِنْهُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لا يُبْصِرُنَا وَلا يَعْرِفُنَا ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا ؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ ؟! » (٢)

أخي المسلم: أمورٌ وأمورٌ دَعَا الإسلامُ إليها، أو حذَّرَ منها، تُعينُكَ على إحراز هذه الصفة من صفات الخَيِّرِينَ من الرجال والنساء، الذين أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً.

﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ فَصُنْ نفسَك، وصُنْ أهلَك عن كُلِّ ما يحولُ بينك وبين تحقيقِ هذه الصفة؛ فإنَّ التفريطَ من جانبِك يُسيءُ إليك وإلى غيرِك.

والمجتمع الفاضل يتساندُ أفرادُه في تحقيق الفضائل وصيانة الحُرُمات، ولا شيء يدمِّرُ كِيانَ الأُمَّةِ كإشاعةِ الفحشاء والمنكر. ومَن يُحبُّ ذلك أو يرضاه تعرَّضَ لغضب الله وسَخَطِه، ومَن رَضِي بفعلِ قومٍ فهو منهم، ومَن أحبَّ قوماً حُشِرَ معهم.

فعلى المرأةِ أن تحذرَ من كلماتِ السُّوءِ، وجُلساءِ السوء، وشُبَهِ السُّوء، وأن تصونَ نفسَها من الفتنة والتقليد لمن يرضى لأنفسهن أن يَكُنَّ وقوداً لنارِ جهنم؛ فإنَّهُنَّ

(١) أبو داود: كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، رقم ١٨٣٦.
(٢) الترمذي: كتاب الأدب، باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال، رقم ٢٧٠٢، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

قد كَثُرنَ في زماننا هذا، وأَبَتْ وسائلُ العصر إلاَّ أن تُطلقَ عليهنَّ ألقاباً تُغري بها كُلَّ محتشمةٍ عفيفةٍ !

وجعلت منهن نموذجَ حضارةٍ وتقدُّمٍ. وهنَّ اللاتي أخبرَ الرسولُ ﷺ عنهن في الحديث الصحيح الذي رواه مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا: قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ (١) مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ (٢)، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ (٣) الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا » (٤)

فعلى المسلمةِ - وهي تنتسبُ إلى أكرم الآباء، وأشرف الأمهات - ألاَّ تُؤْخَذ بالرغباتِ، وتنسى العواقبَ، وألاَّ تُخدَعَ بالزينةِ الزائلة عن القيمة الباقية.

وعليها أن تتدبَّرَ واقعَ الأمة الإسلامية التي تنتسبُ إليها.

إن أُمَّتَنا تحتاج إلى الفردِ الصحيحِ، رجلاً كان أو امرأةً، وبالإيمان والاستقامة تصحُّ النفوسُ، وتسلمُ من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

* * *

---

(١) ثيابهن شفافة تصف، أو محسورة لا تستر.

(٢) مائلات عن الحق، أو مائلات يمشين بتبختر وميوعة.

(٣) البُخت: جمال طويلة الأعناق.

(٤) مسلم: كتاب اللباس والزينة، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، رقم ٣٩٧١.

١٠

أخي المسلم:

في ختام صفاتِ الخَيِّرينَ من الرجال والنساء، في الآية الكريمة من سورة الأحزاب، جاءت هذه الصفةُ ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ وجاء بعدها بيانُ ما أعدَّ الله لهؤلاء من مغفرةٍ وأجرٍ عظيم ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

وذِكْرُ الله طمأنينةٌ للقلب. وهو يُعلي قَدْرَ صاحبِه، ويُحقِّقُ له الحياةَ، حياةَ المستغفرين بنُور الله، المُدركينَ لغايةِ وجودهم.

في الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (١)

فأيُّ شَرَفٍ أعظمُ من هذا الشَّرَف ؟ وأيُّ جزاءٍ أكرمُ من هذا الجزاء ؟

﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ (٢)

روى البخاريُّ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ » (٣)

---

(١) البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ويحذركم الله نفسه، رقم ٦٨٥٦.

(٢) البقرة: ١٥٢.

(٣) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله تعالى، رقم ٥٩٢٨.

وفي روايةٍ لمسلم، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ، وَالْبَيْتِ الَّذِي لا يُذْكَرُ اللَّهُ فِيهِ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ » (١)

إن أصحابَ هذه الصفة في رِفْعَةٍ وحياةٍ وسَبْقٍ.

روى مسلمٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ "جُمْدَانُ"، فَقَالَ: سِيرُوا، هَذَا جُمْدَانُ. سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ. قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ » (٢)

إنَّ لِذِكْرِ الله تأثير في حياة الناس، في عاجلِ أمرهم وآجله.

ومن السبعة الذين يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ: « وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » (٣)

وإذا ذُكِرَ الرجلُ فمن بابِ "التغليب"، لا من باب "الاختصاص"؛ فإنَّ للمرأة أجرُها وثوابُها إذا كانت على هذه الصفة.

ومما يُذْكَرُ في سبب نزول الآية التي معنا ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ.... ﴾ ما رواه الإمامُ أحمدُ في مسنده عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْن شَيْبَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أُمَّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ تَقُولُ: « قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا لَنَا لا نُذْكَرُ فِي الْقُرْآنِ كَمَا يُذْكَرُ الرِّجَالُ ؟ قَالَتْ: فَلَمْ يَرُعْنِي مِنْهُ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ وَنِدَاؤُهُ عَلَى الْمِنْبَرِ. قَالَتْ: وَأَنَا أُسَرِّحُ شَعْرِي، فَلَفَفْتُ شَعْرِي، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى حُجْرَةٍ مِنْ حُجَرِ بَيْتِي، فَجَعَلْتُ سَمْعِي عِنْدَ الْجَرِيدِ، فَإِذَا هُوَ

(١) مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته، رقم ١٢٩٩.
(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم ٤٨٣٤.
(٣) البخاري: كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، رقم ٦٢٠.

يَقُولُ عِنْدَ الْمِنْبَرِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ » (١)

ولقد رأينا أُمَّهاتِ المؤمنين – وقد عُرِضَ فضلُ الذِّكْرِ – يحرصنَ عليه، ويقتدينَ برسول الله ﷺ في قوله وعمله، ويقُمْنَ بما أوجب الله عليهنَّ، ويُكثِرْنَ من ذِكْرِ الله كما أمر الله.

روى مسلم عن أم المؤمنين جُوَيْرِيَةَ رضي الله عنها « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً – حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ – وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ » (٢)

﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ صفةٌ من أكرم الصفاتِ وأبرِّها. صفةٌ تحققُ الفلاحَ بفضل الله ورحمته ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (٣)

وذِكْرُ الله يكون بالألفاظ التي ورد الترغيبُ فيها وأوصت السُّنَّةُ من الإكثار منها.

(١) أحمد: باقي مسند الأنصار، حديث أم سلمة رضي الله عنها، رقم ٢٥٣٨٩.
(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التسبيح أول النهار وعند النوم، رقم ٤٩٠٥.
(٣) الجمعة: من الآية ١٠.

ويكون بالمواظبة على العمل بما أوجبه الله أو نَدَبَ إليه.

ويكون بالقلبِ واللسان والجوارح.

فذكرُ اللسان يكون بالتسبيح، والتحميد، والتمجيد

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ » (١)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ » (٢)

ولذا كان تنافُسُ صحابةِ رسول الله ﷺ لا على زينةِ الحياة وزهرها، بل على الباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال.

في الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « أَنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ. فَقَالَ: وَمَا ذَاكَ ؟ قَالُوا: يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلا نَتَصَدَّقُ، وَيُعْتِقُونَ وَلا نُعْتِقُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفَلا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلاَّ مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: تُسَبِّحُونَ، وَتُكَبِّرُونَ، وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ مَرَّةً. قَالَ أَبُو صَالِحٍ: فَرَجَعَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » (٣)

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم ٥٩٢٧.

(٢) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٤٨٦١.

(٣) مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم ٩٣٦.

هكذا كان صحابةُ رسول الله ﷺ يتنافسون على الباقيات الصالحات، ولا يشكو فقيرُهم غنيهم من تقصيرٍ في حقٍّ، بل يغبطونهم على أداءِ الحقِّ، ولا يقنعُ الأغنياء من فعلِ الخير كما سمعنا، بل تراهم – وقد سمعوا بما فعله إخوانُهم الفقراء – يفعلون مثلَ ما فعلوا.

تنافسٌ على الخير، وإيثارٌ للباقيات الصالحات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

أخي المسلم: ذِكْرٌ باللسان، وقد سمعنا أمره. وذِكْرٌ بالقلب بالتفكير والتدبر، وبالإخلاص والصدق. وذِكْرٌ بالجوارح بالتزام الطاعات، والسعي إليها، وإخضاعِها لما يحبُّ الله ويرضى.

وعليك في جميع أمرك أن تتبعَ ولا تبتدع، وأن تدعو الله دعاءَ الموقنِ الواثق، الذي يتقرَّبُ إليه بالطاعات، ويحترسُ من المحرَّمات، في مأكله ومشربه وجميع أمره. وأفضلُ الذكرِ القيام بما فرضه الله وأوجبه، وإخلاص القصد له قولاً وعملاً، واتباع ما جاء به نبيُّه ﷺ، وتحرِّى المأثورَ عنه في الدعاء؛ فقد ورد عنه في الأحاديث الصحيحة ما يغني ويرشد، ويُعلِّم ويُبصِّر.

روى مسلمٌ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْد عَنْ أَبيه قَالَ: « جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ: عَلِّمْنِي كَلامًا أَقُولُهُ. قَالَ: قُلْ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّه كَثِيرًا، سُبْحَانَ اللَّه رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّه الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. قَالَ: فَهَؤُلاءِ لِرَبِّي، فَمَا لِي ؟ قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي » (١)

(١) مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٤٨٦٢.

١١

أخي المسلم:

إن للمرأةِ مكانتُها، ولها حقوقُها، وعليها واجبات. والقرآنُ الكريم يَذكرُ المرأةَ في مواطنَ كثيرةٍ تُعرَفُ فيها الحقوق، وتُدْرَك الواجبات. ويضربها مَثَلاً للذين آمنوا، ومثلاً للذين كفروا.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

امرأتان كافرتان في بيوتِ أنبياء، وامرأةٌ مؤمنةٌ - وهي امرأةُ فرعون - في بيتِ كافرٍ، ظالمٍ، جحودٍ، لا يستحي أن يقولَ للناسِ: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢)، ولا يتورَّع أن يقولَ للملأ: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ﴾ (٣)

في هذا الجوِّ الخانقِ المظلِمِ تمتدُّ المرأة بشخصيتها فتُنيرُ بموقفها ظلامَ الحياة من حولها، وتعلو بفضائلها حتى يصبحَ أمرُها مثلاً للمؤمنين في كُلّ زمانٍ ومكان، وآيةً تُتلَى في كتابِ الله ﷻ.

امرأتان تُضْرَبان مثلاً للذين كفروا، وامرأتان تُضْرَبان مثلاً للذين آمنوا، في آياتٍ

(١) التحريم: ١٠.
(٢) النازعات: من الآية ٢٤.
(٣) القصص: ٣٨.

متتاليات ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

ما دلالةُ ذِكر المَثَلَيْنِ في القرآن الكريم ؟

نساءٌ كافراتٌ في بيوت أنبياء، لم يستفدْنَ بما يُتْلَى في بيوتِهِنَّ.

ونساءٌ مؤمناتٌ لم يتأثَّرْنَ بما يُحيط بهنَّ من فسادٍ وإفسادٍ، وظلمٍ وطغيان.

آياتٌ تُتْلَى في سورة (التحريم)؛ لتأخُذَ المرأةُ درسَها البالغَ من حياة النبيِّ ﷺ وأزواجِه، ومِمَّا ضربه الله مَثَلاً للذين كفروا وللذين آمنوا.

وأوَّلُ ما يُطالعنا في هذا الدرس: استقلالُ المرأة بشخصيتها ثواباً وعقاباً، فإن كفرتْ وعَصَتْ فلن ينفعها رَحِمٌ أو قريبٌ، أو يغني عنها من الله شيئاً.

﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾ (٢)

---

(١) التحريم: ١٠- ١٢.

(٢) الممتحنة: ٣.

الرسول ﷺ يقولُ لأهله وقرابته: « اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا »، ويقول لابنته فاطمة: « يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي؛ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا » (1)

المرأةُ مسئولةٌ عن عملها. وتلك أقصى درجاتِ التكريم، أن تكونَ مسئولاً عن عملك، لا كَمًّا مُهملاً لا يُؤْبَهُ به، ولا يُقامُ له وزنٌ.

وكم عاشت المرأةُ - بعيداً عن شرع الله - كَمًّا مُهملاً، تُورَثُ كما يُورَثُ المتاع ! ولكنها بالدِّين، وما فُرِضَ من حقوقٍ، وحُدِّدَ من واجبات، صارت ذات شأنٍ أي شأن.

هي (أُمٌّ) وللأُمِّ فضلٌ وحقٌّ. والبِرُّ بها يُقدَّمُ على البرِّ بالأب ثلاث درجات

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ » (2)

وفي رواية: « مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ ؟ قَالَ: أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ » (3)

حقوقٌ وواجباتٌ يُصانُ بها الرجلُ، كما تُصانُ بها المرأة. تنبئُ عن تقديرٍ لإنسانيتها، وأنها مسئولةٌ، والمسئولُ مُكرَّمٌ بما كُلِّفَ.

---

(1) البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم ٢٥٤٨.

(2) البخاري: كتاب الأدب، باب مَن أحق الناس بحسن الصحبة، رقم ٥٥١٤.

(3) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم ٤٦٢٢.

وهي تسمو بتحقيق مسئوليتها حتى تُضْرَبَ مثلاً للمؤمنين من الرجال والنساء، وتنحرف أو تضل، فتدخل النارَ مع الداخلين.

وهي إذا عزَّتْ بدينها عَلَت على البيئة الفاسدة، وكانت مؤثرةً بفضائلها، غير متأثرة بالفسادِ ومَن حولَها، وكانت جديرةً بأن تُضْرَبَ مثلاً.

والمرأةُ المسلمةُ - وهي تقرأُ القرآنَ، وتنشأُ على تلاوته وسَماعه - جديرةٌ أن تُؤثِّرَ في المجتمعات مِن حولها، وأن تكونَ - حيثُ كانت - داعيةً لدِينها بفضائلها وسَمْتِها، وأخلاقِها وعِلمها.

وهي تقرأ القرآنَ وتعتصمُ به واجبٌ عليها أن تكونَ في مَنَعَةٍ من لوثةِ الطَّواعِية والتقليد لما يتنافى مع دينها، ويُخالف كتابَ ربِّها.

إنها وهي تقرأُ القرآنَ، وتعملُ به، تنتسبُ إلى كُلِّ شريفةٍ مؤمنة على مَرِّ التاريخ، وتبرأُ من كُلِّ فاجرةٍ فاسدةٍ في أيِّ زمانٍ وفي أيِّ مكان؛ لأن دِينَها يُعلِّمها أنها (قيمة) وإنْ بَدَت مع حُبِّ الشهوات أنها (زينة)، فإن ما فيها من زينةٍ يذهب، وما هي عليه من قيمةٍ يبقى، فلا تُخدَع بمَن يُزيِّنُ لها الخروجَ على الحقوق والواجبات، ويُقرِّبُ إليها الملذات، ويُغريها بالسبق على الرجال في الموائدِ والحفلات؛ فإنَّ ذلك كُلَّه من حُبِّ الشهوات، وكُلُّ ذلك ذاهبٌ، وتبقى الفضائل، وتبقى القيمة.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ

ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾[1]

أخي المسلم: أَعِنْ أهلَكَ على الفضائل بِمَا تُقدِّمه من تذكرةٍ، وما تتلوه من آيات. ولا تحسبَنَّ إكرامَهم في فيضٍ من الزينة والمتاع، وإنما الإكرامُ في أن تَقِيَ نفسَكَ وأن تَقِيَ أهلَكَ مما يؤدِّي بهم إلى نارٍ وقودها الناسُ والحجارة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[2]

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[3]

اللهم إنا نسألُكَ رِضاكَ والجنة، ونعوذُ بكَ من سَخطِك والنار.

* * *

(١) آل عمران: ١٤، ١٥.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) النور: من الآية ٣١.

١٢

أخي المسلم:

درسٌ للرجالِ والنساء يُتَلقّى من بيتِ الرسول ﷺ، تُتلى فيه آياتٌ يجدُ فيها الرجلُ عظته وعِبرته، وتجدُ المرأةُ أُنوثَتها وقُدوتَها مِمَّا يدورُ في بيوت الرسول ﷺ، وما يُتلى فيها من آيات الله والحكمة.

روى البخاريُّ أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: « لَمَّا أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَخْيِيرِ أَزْوَاجِهِ، بَدَأَ بِي، فَقَالَ: إِنِّي ذَاكِرٌ لَكِ أَمْرًا فَلا عَلَيْكِ أَنْ لا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ. قَالَتْ: وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَبَوَيَّ لَمْ يَكُونَا يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِهِ. قَالَتْ: ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - قَالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (١) قَالَتْ: فَقُلْتُ: فَفِي أَيِّ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ ؟! فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ. قَالَتْ: ثُمَّ فَعَلَ أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَ مَا فَعَلْتُ » (٢)

تخييرٌ واختيارٌ بين ما وصل إليه اليقينُ في هذه النفوس، وما كانت عليه من صِدْقٍ وحُبٍّ لله ورسوله. والمرأةُ بطبيعتها تميلُ إلى الزينة والمتاع، وبيوتُ النبيِّ ﷺ خالية من كُلِّ ذلك، وما فيها إلاَّ ما يَسُدُّ الحاجةَ في وقتها.

تقول عائشةُ رضي الله عنها لعروة ابن أختيها: « إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلالِ، ثُمَّ الْهِلالِ،

---

(١) الأحزاب: ٢٨، ٢٩.

(٢) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة.

ثَلاثَةَ أَهِلَّة فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَارٌ. فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنْ الأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ (١) وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا » (٢)

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنهما الذي سأل فيه عمرُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَنْ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ **إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**... الآية ﴾ في هذا الحديث يقول عمرُ – بعد أن أذنَ له الرسولُ ﷺ بالدخول: « فَرَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ، غَيْرَ أَهَبَةٍ (٣) ثَلاثَةٍ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ؛ فَإِنَّ فَارِسَ وَالرُّومَ قَدْ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ، وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لا يَعْبُدُونَ اللَّهَ. فَجَلَسَ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: أَوَفِي شَكٍّ أَنتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنَّ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » (٤)

وفي هذا الحديث تأتي قضيةُ التخيير، وفيه تقول عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنها: « لَمَّا مَضَتْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً أَعُدُّهُنَّ، دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: بَدَأَ بِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ أَقْسَمْتَ أَنْ لا تَدْخُلَ عَلَيْنَا شَهْرًا، وَإِنَّكَ دَخَلْتَ مِنْ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ أَعُدُّهُنَّ. فَقَالَ: إِنَّ الشَّهْرَ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ » (٥)

هذا بيتُ رسولِ الله ﷺ وما يدورُ فيه وما يُتْلَى فيه من آياتِ الله والحكمة،

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ، رقم ٥٩٧٨.

(٢) البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، رقم ٢٣٧٩.

(٣) جمع إهاب، وهو الجلد.

(٤) البخاري: كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها، رقم ٤٧٩٢.

(٥) مسلم: كتاب الصيام، باب الشهر يكون تسعاً وعشرين، رقم ١٨١٣.

يُخَيِّرُ نساؤه ﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾ (١)

خُيِّرْنَ فاخْتَرْنَ، ونِعْمَ ما اخْتَرْنَ. اخْتَرْنَ الله ورسولَه والدَّارَ الآخرة، ورَضِينَ عيشةَ الكفاف.

وما أكثر ما كُنَّ يَجُدْنَ بما في أيديهنَّ، ويُنفِقْنَ ما يُعْطَى لَهُنَّ في سبيل الله، ويُؤثِرْنَ غيرَهُنَّ على أنفسهنَّ؛ رغبةً خالصةً فيما عند الله.

وليسَ في الآيات ما يُحرِّمُ على أُمَّتِه ﷺ زينةَ الله التي أخرجَ لعباده والطيباتِ من الرزق، وإنما فيها توطيدُ النفوس وإخضاعها لمرضات الله في جميع الأحوال؛ لتكون الإجابةُ مع العُسْرِ واليُسر، فلا اليُسْرُ يغيِّرُ النفوسَ، ولا العُسْرُ يشغلها بالتطلع، وإنما تُشْغَلُ النفوسُ - دائماً - بمرضات الله، وتحيا بالاستجابة لأمره.

ونحنُ نقرأ عن بيوتِ النبي ﷺ وما كان عليه أزواجُه، وما اخْتَرْنَ، نعرفُ أين تكونُ الرغبة، وبِمَ تتعلّق النفوس؛ لنؤثِرَ ما هو أبقى، ونُخضِع الفاني للباقي، ونُسخِّر نِعَمَ الله في مرضاته.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

---

(١) الأحزاب: ٢٨، ٢٩.

(٢) الأعراف: ٣٢.

وبهذا تعتدلُ النفسُ، وتُمْنَحُ الرضا في الأحوال كُلِّها؛ لأنَّ الإنسانَ أحرَزَ طاعةَ الله ورسولِه، وعمل على مرضاته.

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ (١)

فَلْتَعِي الأختُ المسلمةُ ذلك؛ حتى لا تُفْتَنَ بزينةِ الحياة، أو تركنَ إليها وتنسى الغدَ وما به من حسابٍ وجزاء، ولتتنافَس على ما يبقى؛ فإن التنافس على الباقيات الصالحات يُخْضِعُ متاعَ الحياةِ لمرضات الله، فتنعم النفسُ بفضائلها، وتبقى بأخلاقها، وترضى عن حياتها، ولا تحقر نعمةَ ربِّها، وتنظر - دائماً - إلى ما هو أعلى منها في دينٍ وخُلُقٍ، لا في زينةٍ ومتاع. وفي حياةِ الرسول ﷺ أُسْوَةٌ حسنةٌ لِمَن كان يرجو الله واليومَ الآخر وذَكَرَ الله كثيراً.

* * *

---

(١) الكهف: ٤٦.

١٣

أخي المسلم:

إن التعاونَ بين الرجلِ والمرأة لا يقفُ عند شئونِ البيت، وتنظيمِ الحياة المعيشية فحسب، وإنما يمتدُّ إلى ما فَرَضَ اللهُ، من الأمرِ بالمعروفِ، والنهي عن المنكر، وإقام الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاة، وطاعةِ الله ورسوله.

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (١)

هذا ما يقتضيه الإيمانُ وما يُوحيه. وهذا حال المؤمنين والمؤمنات في تعاونهم وترابطهم وتكافلهم، تعاونٌ لإعلاءِ كلمةِ الله وتحقيقِ ما أَمَرَ به.

أما شأنُ المنافقين والمنافقات فَهُمْ على النقيضِ من ذلك. لا يتعاونون فيما بينهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتآزرون على البذلِ والعطاء فيما أَمَرَ الله به ودَعَى إليه، ولا يذكرون الله تعالى، بَلْ ينسَوْنَه.

فإنْ أَمَرَ المؤمنونَ والمؤمناتُ بالمعروف، أَمَرَ المنافقونَ والمنافقات بالمنكر.

وإذا جاء المؤمنون والمؤمناتُ بالعطاء، وطابت أنفسُهم بالإنفاق في سبيل الله، قبضَ أهلُ النفاقِ أيديهم.

---

(١) التوبة: ٧١.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ (١)

إيمانُ الرجال والنساء يُوجِّهُ إلى تحقيقِ الخير والتعاون على البرِّ. ونفاقٌ يكون في الرجال وفي النساء يقودُ أهلَه إلى المنكر وسُوء العاقبة. ومع الإيمان يتمُّ الترابط والتعاون، والتكافل في تحقيق الخيرِ ودَفْعِ الشر ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ يتَّجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يُوصي بعضُهم بعضاً بذلك، ويُعاونُ بعضُهم بعضاً.

وتلك فريضةٌ يُصانُ بها المجتمعُ، وتُحفَظُ الأسرةُ من التفكك والضياع.

والتفريطُ فيها يحققُّ الفُرقةَ، ويُورثُ اللعنةَ.

روى أبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ؛ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْغَدِ، فَلا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ (٢) ثُمَّ قَالَ:

---

(١) التوبة: ٦٧ , ٦٨.

(٢) يُقَال: ضَرَب اللَّبَن بَعْضه بِبَعْضٍ أَيْ خَلَطَهُ. ذَكَرَهُ الرَّاغِب وَقَالَ ابْن الْمَلَك رَحِمَهُ اللَّهُ: الْبَاء لِلسَّبَبِيَّةِ، أَيْ: سَوَّدَ اللَّه قَلْب مَنْ لَمْ يَعْصِ بِشُؤْمِ مَنْ عَصَى، فَصَارَتْ قُلُوب جَمِيعهمْ قَاسِيَة بَعِيدَة عَنْ قَبُول الْحَقّ وَالْخَيْر أَوْ الرَّحْمَة بِسَبَبِ الْمَعَاصِي وَمُخَالَطَة بَعْضهمْ بَعْضًا.

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (١) ثُمَّ قَالَ: كَلاَّ وَاللَّهِ، لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدَيْ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطُرُنَّهُ (٢) عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّهُ (٣) عَلَى الْحَقِّ قَصْرًا » (٤)

فريضةُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتعاونُ فيها المؤمنون والمؤمنات، ويُوالي بعضُهم بعضاً على أدائِها، كما يُوالي بعضُهم بعضاً على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسولِه.

فللمرأة دورُها في أداء هذا الواجب، في محيطِ مَن تعاشرهم أو تتَّصل بهم.

عليها أن تُذكِّرَ بما يجب، وأن تدعو إلى ما يحبُّ اللهُ ورسولُه ويرضى.

عليها أن تعاون زوجَها في القيام بما أوجب الله، وأن تُسدِّدَ خُطاه فيما يُرضيه، وأن تُطيعه في المعروف، وأن تردَّه عن المنكر، وأن تُذكِّره بالله، وتُعينه على إحراز الباقيات الصالحات، من الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) المائدة: ٧٨ – ٨١.

(٢) أي: لَتَرُدُّنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، وَأَصْلُ الأَطْرِ الْعَطْفُ وَالتَّثَنِّي.

(٣) أي: لتحبسنَهُ عَلَيْهِ وَتُلْزِمُنَّهُ إِيَّاهُ. وَفِي النِّهَايَةِ يُقَالُ قَصَرْتُ نَفْسِي عَلَى الشَّيْءِ إِذَا حبستها عَلَيْهِ وَأَلْزَمْتُهَا إِيَّاهُ.

(٤) أبو داود: كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم ٣٧٧٤.

وعليها - وهي تعرف من النساء مَن تعرف، وتُخالط مَن تخالط - أن تكون إيجابيةً في صلاَتها، تُبصِّرُ وتُذكِّرُ، تأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتُرغِّبُ في الخير، وتدعو إليه، وتُحذِّرُ من الشر، وتنهى عنه.

وتُصاحِبُ - من المؤمنات - مَن يُعينها على طاعةِ ربِّها، وتكون ناصحةً أمينةً، لا تُشغَل بالرغائب عن العواقب، ولا تُفْتَن بالزينة الفانية عن القيمة الباقية.

وعليها أن تأخذ - دائماً - بالأسباب التي تسمو بفضائلها وتصون أخلاقَها؛ فإنها مخاطَبَةٌ بشرع الله، مأمورةٌ به، مجزيةٌ عليه. وهي راعيةٌ في بيت زوجها، ومسئولةٌ عن رعيتِها، وبين يديها رجالُ الغد ترعى نموَّهم، وتحرس نشأتَهم، وترعاهم بالكلمة الطيبة والقدوة الحسنة، وتغرس فيهم الفضائل وأنْبلَ الصفات.

مجالُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متَّسَع ومتعددٌ، والقيامُ به وأداؤه كما ينبغي سبيلُ الخير والفلاح ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (١)، ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (٢)

فَلْيَعِ كُلٌّ منَّا واجبَهُ، ولْيُؤَدِّهِ كما أمر الله؛ فاليومَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣)

---

(١) آل عمران: ١٠٤.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) العنكبوت: ٦٩.

١٤

أخي المسلم:

يطيبُ لي - في حديثنا هذا عن المرأةِ في القرآن الكريم - أن ألتقيَ معك عند مطلعِ سورة "المجادلة"؛ لنعرف شأنَ المرأة التي يسمع الله قولها وهي تجادلُ رسولَ الله ﷺ في زوجِها، وتشتكي إلى الله؛ فإن فيها دروساً وعظات.

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ﴾[١]

روى الإمام أحمدُ عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ، عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، قَالَتْ: « وَاللَّهِ فِيَّ وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِت أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ صَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادَلَة. قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ، وَضَجرَ. قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَنْت عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ، فَجَلَسَ فِي نَادِي قَوْمه سَاعَةً، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ، فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي. قَالَتْ: فَقُلْتُ: كَلاَّ، وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَده لا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِه. قَالَتْ: فَوَاثَبَنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ، فَغَلَبْتُهُ بِمَا تَغْلِبُ بِه الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ، فَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي، فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ، فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْه، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ، فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْه ﷺ مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خُلُقه. قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَقُولُ: يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَاتَّقِي اللَّهَ فِيه. قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِيَّ الْقُرْآنُ،

(١) المجادلة: ١.

فَتَغَشَّى رَسُول اللَّهِ ﷺ مَا كَانَ يَتَغَشَّاهُ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَقَالَ لِي: يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ (١) فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً. قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عِنْدَهُ مَا يُعْتِقُ. قَالَ: فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ. قَالَ: فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ. قَالَتْ: قُلْتُ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا ذَاكَ عِنْدَهُ. قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَأَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ سَأُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ. قَالَ: قَدْ أَصَبْتِ وَأَحْسَنْتِ، فَاذْهَبِي فَتَصَدَّقِي عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْرًا. قَالَتْ: فَفَعَلْتُ » (٢)

ذاك هو الشأنُ الذي سمع الله ما دارَ فيه من حوارٍ بين رسول الله ﷺ والمرأة التي جاءت تُجادلُ فيه. سمع الله قولَها، وعائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنها في جانب البيت لم تسمع ما تقول. قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنها: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ

---

(١) المجادلة: ١– ٤.

(٢) أحمد: مسند القبائل، حديث خولة بن ثعلبة رضي الله عنها، رقم ٢٦٠٥٦.

خَوْلَةُ إِلى رَسُولِ اللّهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَها، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا، فَأَنْزَلَ اللّهُ ﷻ: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ... الآية ﴾ »[1]

إحاطةٌ بكُلِّ شيءٍ، ورعايةٌ لشئون الخَلْق صغيرِها وكبيرِها ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾[2]

امرأةٌ تشكو إلى رسول الله ﷺ ما وَقَعَ من زوجها، وما يترتَّبُ على قوله لها: « أنت عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي » من نتائج وآثار، فلا يلبث الوحيُ أن يجيءَ بخبرِ السماء ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

قضيةُ الحوارِ تُذْكَرُ ومعها الحُكم من الله ﷻ، تجابُ به المرأةُ المجادِلةُ، ويجابُ به غيرُها مِمَّن يقع معها مثلَ ما وقع، ودلالته أن لا نستصغرَ شأناً من شئوننا، أو نحقر عملاً من أعمالنا؛ فإن طَمَعَ الشيطان فيما نستصغره، ورضَاه فيما نحقره.

وإنَّ كُلَّ شأنٍ من شئونِنا لَهُ قَدْرُه وحِسَابُه في ميزانِ الله ﷻ.

---

(١) النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم ٣٤٠٦.

(٢) يونس: ٦١.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (١)

فهل تعي المرأةُ دلالةَ الآيات في تكريمها، ورعاية حقوقها، وسماع الله لقولها وشكواها، فتدرك أن لها شأنٌ وأيُّ شأنٍ، وأنَّ صغيرَ أمرِها وكبيره يُحيط الله به، ويُحاسِبُ عليه، فلا تُخدَع بما يُزَيَّنُ لها من شعاراتٍ منافيةٍ لدين الله باسم (التكريم) و(التقدُّم) و(تقرير الحقوق)؛ فليس بعد تكريمِ الله تكريم، ولا بعد الحقِّ إلا الضلال.

فإذا بَعُدَت عن دينِ الله فقد أُهِينَت. ولن يرفعها من مَهَانَتِهَا - إنْ فرَّطت في جنب الله - تكريمُ البشر ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ ﴾ (٢)

فلتطيب المرأةُ نفساً بعطاءِ الخالق، ولتحذر من عبث المخلوق ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) الحج: من الآية ١٨.

(٣) البقرة: من الآية ٢٣٥.

١٥

أخي المسلم:

لقد بايعَ الرسولُ ﷺ النساءَ، كما بايعَ الرجال. وجاءت بيعةُ النساء في قوله تعالى من سورة "الممتحنة": ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١)

روى البخاريُّ في صحيحه، عن عُرْوَةَ « أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنها زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَمْتَحِنُ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ بِهَذِهِ الآيَةِ، بِقَوْلِ اللَّهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ..... إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا الشَّرْطِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ، قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ بَايَعْتُكِ. كَلامًا، وَلا - وَاللَّهِ - مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطُّ فِي الْمُبَايَعَةِ، مَا يُبَايِعُهُنَّ إِلاَّ بِقَوْلِهِ: قَدْ بَايَعْتُكِ عَلَى ذَلِكِ » (٢)

وأخرج البخاري ومسلم عن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِت رَضِيَ اللهُ عَنهُ - وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا، وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاءِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ - « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ:

---

(١) الممتحنة: ١٢.

(٢) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: إِذَا جاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ، رقم ٤٥١٢.

بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلا تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُوا فِي مَعْرُوف. فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ. فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِك » (١)

بايع الرسولُ ﷺ الرجالَ، كما بايع النساءَ على ما جاء في هذه الآية. وشروط البيعة ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾

أوَّلُ هذه الشروط: ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾؛ فإن الشركَ مُحبِطٌ للعمل. وحقُّ الله على العبادِ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. ومن لم يبرأ من الشرك لم يكن آتياً بعبادةِ ربِّه، وإنْ بَدَا له أنَّهُ قد أدَّى ما وَجَبَ عليه.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (٢)

إن الشركَ أعظمُ الذنوب. والله – جَلَّ وعَلا – لا يغفرُ أن يُشْرَكَ به، وما دون ذلك فهو داخلٌ تحتَ مشيئته سبحانه، إنْ شاء غفر، وإن شاء عذَّب.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ

(١) البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، رقم ١٧.
(٢) الزمر: ٦٥.

بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [١]

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ ﴾ [٢]

فعلي المسلم أن يحترسَ منه، وأن يخافه في جميع أمره؛ فإنه أقبح القُبح، وأظلم الظلم.

﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ ﴾ [٣]

فلنحذر الشركَ الظاهر والخفيّ، وهو أن يُرائي الناسَ بعمله، وقد سمّاه الرسولُ ﷺ (الشركَ الخَفيَّ) كما سمّاه (شركَ السرائر).

روى ابنُ ماجةَ في سننه، عن أبي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنْ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى. فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ؛ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ » [٤]

وروى ابنُ خزيمةَ في صحيحه، عن محمود بن لبيد قال: « خرج علينا رسولُ الله ﷺ، فقال: أيُّها الناس، إيَّاكُم وشِرك السرائر. قالوا: يا رسول الله، وما شِركُ السرائر؟

(١) النساء: ٤٨.

(٢) المائدة: من الآية ٧٢.

(٣) لقمان: ١٣.

(٤) ابن ماجة: كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، رقم ٤١٩٤.

قال: يقومُ الرجلُ فيصلي، فيُزَيِّنُ صلاتَه؛ لِمَا يرى من نَظَرِ الرجل إليه. فذلك شِرْكُ السرائر » (١)

وقد بيَّنت السُّنةُ المطهرةُ أموراً كثيرة يجب على المسلمِ أن يحذرها؛ حتى لا يقعَ في الشرك، فيهلك مع الهالكين.

إذا مَرِضَ الإنسانُ قد يُسوِّلُ له الشيطانُ أن شفاءَهُ يتوقَّفُ على لُبْسِ كذا وكذا، بل قد تُسَوِّلُ له شياطينُ الإنس أن يفعل ما لا يجوز فعله، من لُبْسِ حلقةٍ أو خيطٍ أو تميمة؛ ليذهب مرضه، وترتفع عِلَّته ! وينسى أن الشفاءَ لا يُطلَبُ إلاَّ من الله، ولا يقدر عليه أحدٌ غيره ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ (٢)

روى الإمامُ أحمدُ، عن عِمْرَان بْن حُصَيْنٍ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَبْصَرَ عَلَى عَضُدِ رَجُلٍ حَلْقَةً - أُرَاهُ قَالَ: مِنْ صُفْرٍ - فَقَالَ: وَيْحَكَ ! مَا هَذِهِ ؟! قَالَ: مِنْ الْوَاهِنَةِ. قَالَ: أَمَا إِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلاَّ وَهْنًا. انْبِذْهَا عَنْكَ؛ فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا » (٣)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾

الشركُ أوَّل شروط المبايعة. بَدَأَ به النبيُّ ﷺ؛ لأنه أخطر شيءٍ يُودي بالإنسان، ويُحبطُ عملَه.

فعلى المرأة - وهي تأخذُ نفسَها بشروط هذه البيعة - أن تتدبَّرَ ما فيها، وأن تحذرَ - أوَّل ما تحذرُ - أخطرَها شأناً ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ وأن تقصد

---

(١) صحيح ابن خزيمة: باب جماع أبواب الأفعال (٤/١٥) رقم ٨٩٢.

(٢) الشعراء: ٨٠.

(٣) أحمد: أول مسند البصريين، حديث عمران بن حصين ﵁، رقم ١٩١٤٩.

بجميع عملها وَجْهَ ربِّها؛ فإن الله لا يقبل من العمل إلاَّ ما كان خالصاً لوجهه.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ (١)

روى مسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « قَالَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ. مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ » (٢)

فلنُصَحِّح النيَّةَ والقَصْدَ، ولْيكُن عملنا - دائماً - موافقاً للشرع، نتَّبع ولا نبتدع، نأخُذ ما أمرنا الرسولُ ﷺ به، وننتهي عمَّا نهانا عنه.

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (٣)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (٤)

اللهم إنَّا نعوذُ بكَ من أن نُشْرِكَ بكَ شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه.

---

(١) البينة: ٥.

(٢) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم ٥٣٠٠.

(٣) الحشر: ٧.

(٤) المؤمنون: ٥٧- ٦١.

١٦

أخي المسلم:

جاء في بيعة النساء قولُهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

وقد تحدثنا من قبل في أوَّلِ هذه الشروط: ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ وهذا أظلم الظلم، وأقبح القبيح ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ (٢)

فعلى المسلمة أن تحذرَ الشرك وما يؤدِّي إليه، وأن تكون على بصيرةٍ في جميع أمرها؛ حتى لا تقع في الشرك، أو تصاب بلوثةٍ منه ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (٣)، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (٤)

---

(١) الممتحنة: ١٢.
(٢) المائدة: من الآية ٧٢.
(٣) الحج: ٣١.
(٤) الكهف: من الآية ١١٠.

ومن شروط هذه البيعة ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾

شروطٌ تُحقِّقُ مكارمَ الأخلاق، وتُحرِّرُ النفسَ من عبوديةِ الشهوات.

﴿ وَلا يَسْرِقْنَ ﴾؛ فإن السرقةَ خيانةٌ تُخِلُّ بالشَّرَفِ، وتُسقط الكرامة. والإسلامُ لم يدعْ للإنسانِ مجالاً للوقوعِ في هذه الجريمة، ومَن وَقَعَ فيها - بعد تحقيق ما أمر الله به من رعايةٍ وتعاونٍ وتكافلٍ - وجب أن يُقامَ عليه الحَدُّ دون شفاعةٍ أو تهاونٍ، ما دام الأمر قد ثبت بلا شُبهةٍ أو معذرة.

« وَايْمُ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ، لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا » (١)

شرعٌ فيه طهارةٌ للمجتمع من عَبَثِ العابثين وإفساد المفسدين.

﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

والحُرَّةُ الكريمةُ تأنَفُ من الوقوع فيما ينافي كرامتها، ويُخِلُّ بشرَفِها، وتبتعد عن كُلِّ ما يُسيء إلى سُمعتها.

سمعت هندُ بنتُ عتبة، امرأةُ أبي سفيان - وهي تبايع مع النسوة اللاتي بايَعْنَ بعد فتح مكة - سمعت شروطَ المبايعة، وفيها ﴿ وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾، فقالت: « يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ، لا يُعْطِينِي مِنْ النَّفَقَة مَا يَكْفِينِي وَيَكْفِي بَنِيَّ، إِلاَّ مَا أَخَذْتُ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمِهِ. فَهَلْ عَلَيَّ فِي ذَلِكَ مِنْ جُنَاحٍ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) البخاري: كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رُفع إلى السلطان، رقم ٦٢٩٠.
(٢) الإسراء: ٣٢.

ﷺ: خُذي مِنْ مَالِهِ بِالْمَعْرُوفِ مَا يَكْفِيكِ وَيَكْفِي بَنِيكِ »[1]

فلمَّا سَمِعَت « ولا يزنينَ » قالت: « أَوَتَزْنِي الحُرَّةُ ؟! »

ومن قديمٍ حَفِظَ الناسُ من كلام العرب: « تَمُوتُ الحُرَّةُ، ولا تأكُل بِثَدْيَيها ».

فالحُرَّةُ عفيفةٌ شريفةٌ. والإسلامُ قد جعل دوافعَ العِفَّة والاستقامة - من إخلاص الإنسان لربِّه، وخشيته منه - فاستفاد الحُرُّ بدينه أجراً وزُخراً.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝ ﴾[2]

وخيارُ الناس حين انتقلوا من الجاهلية كانوا خيارَ الناس في الإسلام؛ بفقْههم، وإخضاعِ مقوِّماتهم وصفاتهم لمرضاتِ ربِّهم، فالشجاعة قد تُوجَدُ في الجاهلية، وتُوجَدُ في الإسلام، ولكنها في الجاهلية نَخْوَةٌ، وحَمِيَّةٌ، وفَخْرٌ. وهي في الإسلام خاضعةٌ لِمُثُلٍ عُليا، شجاعةٌ لإعلاءِ كلمةِ الله، والجهاد في سبيله وخروجٌ من حظوظ النفسِ إلى مرضاتِ الربِّ جلَّ وعَلا.

والحُرَّةُ تأبى أن تَقَعَ في الزنا في الجاهلية؛ حفاظاً على شَرَفِ الأسرة، وقيمتها ووضعها الاجتماعي، وهي في الإسلام تأبَى الزنا؛ خشيةً من ربِّها، وطلباً لمثوبته. فتأخذ الصفةُ مع الإيمان طابعَ الثبوت والشمول.

ولا يقنع صاحبُ الخُلق في الإسلام أن يستقيم في نفسه فحسب، بل يستقيمُ في نفسه، ويدعو غيرَه، ويمشي بنور ربِّه في الناس، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويرجو الله واليومَ الآخر بجميع عمله، ويذكر ربَّه ولا ينساه.

---

(١) مسلم: كتاب الأقضية، باب قضية هند، رقم ٢٣٣٣.

(٢) الطلاق: من الآية ٥.

وبهذا الإيمان ترتفعُ القِيم ولا تهبط، وتحمل صاحبَها إلى الفوز والفلاح.

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (١)

في حديثِ الإفك الذي استُهدفت به عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زوج النبي ﷺ وبنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. لما سَمِعَ والدُها بالأمر قال كلمةً تُنبئ عن أصالة الخُلق في هذا البيتِ الكريم « والله ما رُمينا بهذا في الجاهلية، أفنرضى به في الإسلام ؟ »

لا، إنه بالإسلامِ أعزُّ وأكرمُ، ولا يزيد الإسلامُ صفاتِ الخير ومكارم الأخلاق إلاّ ثَباتاً، ويُعظِمُ الله لأهلها أجراً.

وكفى أن يُنــزل الله في زوج الرسولِ ﷺ قُرآنٌ يُتْلَى، وكم كابَدت من ألمٍ وهي تسمع ما سمعت من قولٍ يفترى الكذب؛ لينال من عِرضها، فاستغاثت بربِّها، ولجأت إليه ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (٢)

تقولُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « فلمَّا أُنزل على رسول الله ﷺ وسُرِّي عنه، كانت أوَّل كلمة تكلّم بها: يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكِ. فَقَالَتْ أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: لاَ وَاللَّهِ، لا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلا أَحْمَدُ إِلاَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ » (٣)

لقد كان استعظامُها للأمر كبيراً، فلم تُطِق أن تسمع ما سمعت، وعندما أخبرتها "أمُّ مِسْطَحٍ" بما خاض فيه الناسُ، أخذتها الحُمَّى.

---

(١) المؤمنون: ٦٠، ٦١.

(٢) يوسف: من الآية ١٨.

(٣) البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا، رقم ٤٣٨١.

روى الطبرانيُّ بإسناد صحيحٍ، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: « لما بلغني ما تكلّموا به هممتُ أن آتي قَلِيباً [1] فأطرحُ نفسي فيه » [2]

كانت لا يرقأُ لها دمعٌ، ولا تكتحل بنومٍ - كما حدَّثت عن نفسها - وظلَّ هذا حالها حتى نزلت براءتُها.

سموٌّ، وطُهرٌ، وعِفَّةٌ.. لا ترضى أن تُخدَش ولو بكلماتِ زورٍ وبُهتان.

والله يدافع عن الذين آمنوا، ويجعلُ سهامَ الأفّاكين شرًّاً على أصحابِها، خيراً لمن رُمُوا بها.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١١ ﴾ [3]

فعلى المسلمة أن تتميَّز بعفّتها، وأن تسمو بأخلاقها، وأن تتخذ من أمهات المؤمنين مَثَلاً لحياتها؛ فإن الدنيا تنشدها؛ لتُصلح بها ما فسد من أخلاق الناس. وعليها يتوقّفُ إنسانُ الغدِ، فهي أُمٌّ، والأمُ مدرسةٌ، فإن صلحت صلح غَدُنا، وانتصرنا بنصر الله على أعدائنا.

* * *

(١) القليب: البئر القديمة.

(٢) المعجم الكبير للطبراني: ١٢١/٢٣، رقم ١٥٧.

(٣) النور: ١١.

١٧

أخي المسلم:

وقفنا معاً - في الحديث الماضي - عند شروط البيعة. بيعة النساء التي جاءت في قوله تعالى من سورة الممتحنة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

وقد عرفنا من شروط البيعة ﴿ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ ورجونا أن تحقِّقَ المرأةُ المسلمةُ - في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ - هذه الشروط، كما حقَّقتها المرأةُ المسلمةُ من قبل، فأخرجت للناس رجالاً سَعِدَت بهم الدنيا، ورأت من طُهرهم وبَسَالَتِهم وعَدْلِهم ما صار مَضْرِبَ مثلٍ للأجيال من بعدهم.

واليومَ نمضي معاً؛ للنظر فيما بقي من شروط البيعة ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ ﴾

ونحن نعرفُ ما كان عليه أمرُ الجاهلية من وَأْدٍ وقَتْلٍ، وما قد يصير إليه الأمرُ من وأْدٍ خَفيٍّ، وقَتْلٍ بأساليب متنوعة تُعبِّرُ كُلُّها عن جهلٍ وسُوءِ قصد.

فالأولادُ إذا كان الضِيقُ بهم من إملاقٍ أو خشيةٍ، فَرِزْقُ هؤلاء وأولئك على الله.

---

(١) الممتحنة: ١٢.

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ (١)

﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ ﴾ (٢)

﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ ﴾ (٣)

قال ابنُ كثيرٍ: وهذا يشمل قَتْلَه بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشيــةَ الإملاق، ويعمُّ قَتْلَه وهو جنين، كما قد يفعله بعضُ الجهلةِ من النساء.

﴿ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ ﴾ أي: لا يُلحقن بأزواجهنَّ غيرَ أولادهم، وذلكَ أن المرأةَ كانت تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك. فذلكَ البُهتان المفْتَرَى. وقيل: معنى ﴿ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ ﴾ يأخُذْنَهُ لقيطاً، ﴿ وَأَرۡجُلِهِنَّ ﴾ ما وَلَدْنَهُ من زنىً.

وفي حديث أبي داود، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ « أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ – حِينَ نَزَلَتْ آيَةُ الْمُتَلاعِنَيْنِ –: أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَدْخَلَتْ عَلَى قَوْمٍ مَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَلَيْسَتْ مِنْ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَلَنْ يُدْخِلَهَا اللَّهُ جَنَّتَهُ، وَأَيُّمَا رَجُلٍ جَحَدَ وَلَدَهُ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، احْتَجَبَ اللَّهُ مِنْهُ، وَفَضَحَهُ عَلَى رُءُوسِ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ » (٤)

﴿ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ ﴾ ولم يجعل اللهُ طاعةً لنبيِّه ﷺ إلاَّ في المعروف.

---

(١) هود: من الآية ٦.

(٢) الأنعام: من الآية ١٥١.

(٣) الإسراء: من الآية ٣١.

(٤) أبو داود: كتاب الطلاق، باب التغليظ في الانتفاء، رقم ٩٢٨.

والمعروف كُل طاعةٍ، وهو يشمل جميعَ ما يأمُرهنَّ به رسولُ الله ﷺ من شرائع الإسلام وآدابه.

أخرج مسلمٌ في صحيحه، من حديث أُمِّ عطيةَ رَضِيَ اللهُ عَنها قَالَتْ: « لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ قَالَتْ: كَانَ مِنْهُ النِّيَاحَةُ » (١)

وأخرج ابنُ أبي شيبة في مصنفه، عن زيدِ بن أسلم في قوله: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ قال: لا يشْقُقْنَ جَيْباً، ولا يَخْمِشْنَ وَجْهاً، ولا يَنْشُرْنَ شَعْراً، ولا يَدْعون وَيْلاً » (٢)

إذا بايعنك على هذه الشروط ﴿ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

بَيْعَةٌ تُطهِّرُ بها النفسُ من لوثةِ الشركِ، وظلام الإفك، وتتحرَّرُ من أسْرِ الهوى والشهوة، وتنتصرُ في ميدان الفضائل، وتسمو بإيمانها واستقامتها.

وإذا استطاع كُلُّ إنسانٍ أن ينتصر على نفسه - بانتصار فضائله - كان أقدرَ على تحقيقِ ذلك في مجتمعه « إنك لن تنصر الله في معركةٍ، حتى تنصره في نفسك بتغليب أمره على هواك، وإذا استوينا مع غيرنا في المعصية، كان لهم الفضلُ علينا في القوة. وإلاَّ نُنْصَر بفضلنا، لم نغلب بقوَّتنا ».

(١) مسلم: كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، رقم ١٥٥٤.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ٦١/٣، رقم ١٢١٠٨.

وعظمةُ هذا الدين تكمنُ في: تطهيرِ النفس، وتربيتها، وإعدادها إعداداً يصلحُ به أمرُ المجتمع؛ فالمجتمعُ لبناتُه الأفراد، يَقْوَى بقوَّةِ أفراده، ويضعُفُ بضعفِهم.

والدِّينُ الذي تصلح به النفس - ظاهراً وباطناً - وتتخلّى عن الرذائل، وتتحلّى بالفضائل، جديرٌ أن يُحقِّقَ للمجتمع أعظمَ ما يحتاج إليه من أَمْنٍ، وبِرٍّ، وسلامٍ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

بيعةٌ على اجتنابِ الرذائل، واكتساب الفضائل.

بيعةٌ تطهِّرُ المجتمعَ من الإساءة في جميع صورها.

والمجتمع الذي يُطهَّرُ من الشركن ترتفع فيه الرءوس، وتسمو النفوس.

والمجتمع الذي يُطهَّرُ من السرقة، يأمَنُ أفرادُه على أنفسهم وأموالهم وأعْرَاضِهِم.

والمجتمعُ الذي يعفُّ أفرادُه عن المحرَّمات، تنشأ فيه الأُمُّ الطَّهور التي تُنجبُ حَمَلَةَ الرسالة والأُمَنَاءَ عليها. وهل بَادَت الأممُ إلاّ بالمعاصي والشهوات ؟ وهل لُعِنَ مَن لُعِنَ إلاّ بإثمٍ وعدوان ؟ ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (١)

---

(١) المائدة: ٧٨، ٧٩.

ولذا كانت مهمةُ الرسل تزكيةً وتطهيراً وتعليماً ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ (١)

فهل تعي المرأةُ المسلمة أمرَ دينها، وتُحقّقُ بيعةَ نبيِّها، وتذكر نعمةَ ربِّها ؟

فَإِنَّهَا إِنْ وَفَّتْ، فَازَتْ وَرَبِحَتْ.

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٣)

* * *

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) النور: ٥٢.

(٣) النحل: ٩٧.

١٨

أخي المسلم:

يُرغّبُ الإسلامُ في الزواجِ، ويحثُّ عليه، ويأمرُ به.

ولا يخفى على أحدٍ ما للزواج المُبكّرِ من آثارٍ في حياة الفرد والمجتمع: صَوْناً، وعِفّةً، وتكاثُراً، ونمواً. وهو من سُنَنِ المرسلين. ومَن يرغَبُ عنه - وهو قادرٌ عليه - فقد خالَفَ وعَصَى. ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ (١)

وقال الرسول ﷺ: « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ (٢) فَلْيَتَزَوَّجْ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ (٣) » (٤)

وأنكر الرسولُ ﷺ على مَن رَغِبَ عنه وهو قادرٌ عليه، وعَدَّه راغباً عن سُنَّته، ومَن رَغِبَ عن سُنَّته فليس منه. يقول أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : « جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا (٥) فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا

---

(١) النساء: ٣.

(٢) الْبَاءَةَ: الْجِمَاع، وقيل: مُؤَن النِّكَاح.

(٣) الوِجَاء: هُوَ رَضّ الْخُصْيَتَيْنِ. والْمُرَاد هَا هُنَا: أَنَّ الصَّوْم يَقْطَع الشَّهْوَة، ويَقْطَع شَرّ الْمَنِيّ كَمَا يقطعهُ الْوِجَاء.

(٤) البخاري: كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ: من استطاع منكم الباءة فليتزوج، رقم ٤٦٧٧.

(٥) أي: عدّوها قليلة.

فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلا أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا - وَاللَّهِ - إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ. فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » (١)

وتحقيقُ هذه السُّنة ضروري؛ لحماية الفرد والمجتمع من الفساد والضياع.

ومن التيسير في تحقيقِها: عدم الإسراف والمبالغة في الإنفاق، مِمَّا يُعسِّرُ أمرَ الزواج أو يعوقه.

وعلى المسلمِ والمسلمةِ أن تُراقبَ الله فيما ترغب وتطلب، فينشد الرجلُ المرأةَ لدِينها، وترغب المرأةُ فيمن هو ذو دينٍ وخُلق؛ فالحياة الزوجية مُمتدةٌ، تذهبُ فيها الأعراضُ ويبقى الجوهر، وتروح الزينةُ وتبقى القيمة.

« إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلاَّ تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ »(٢)

أما الغنى والفقر، والزينة والمتاع، فتلك أعراضٌ تتبدَّل وتتغير

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٣)

إن الأرزاقَ بيدِ الله وحده. فمَن أطاع الله، ورَغِبَ فيما رَغبَ فيه ودَعى إليه،

---

(١) البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٤٦٧٥.

(٢) الترمذي: كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، رقم ١٠٠٤.

(٣) النور: ٣٢.

أنجز اللهُ له ما وَعَدَه به من الغنى، وبارك له فيما أعطاه.

وإذا كُنَّا قد نُهينا عن الإسراف والتبذير في كُلِّ شيء ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾[1] فعلينا أن نُدرك ما يؤدِّي إليه التبذيرُ من مفاسدَ فيما نحنُ بصدده من أمرِ الزواج؛ ذلك أن التبذيرَ سيصبح - مع الزمن - عُرْفاً متَّبعاً في حياة الناس، والناسُ يُقلِّدُ بعضُهم بعضاً، وفي ذلك من تعطيلِ الزواجِ وتأخيره ما فيه؛ لأن كثيراً من الناس يصعُب عليهم ما يتطلبه الزواجُ من تكاليف، ويشق عليهم أن يجدوا مؤنته، وقد أُمِرْنا بالتيسير « يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا »[2]، والتيسيرُ لأسباب الحلال يُغلقُ أبوابَ الحرام، ويرفع عن الشباب المشقةَ والعَنَت، ويُحقق العِفَّةَ في السلوك، ويصون الشبابَ من الوقوعِ فيما حرَّم الله، ويحفظ للبيوتِ حُرمَتَها وكرامتها.

والله - جلَّ وعَلا - يأمُرنا رجالاً ونساءً بتَقْوَاه؛ لأنَّ التقوى ضمانٌ لإعطاء الحقوق، والقيام بالواجبات، بلا مجاوزةٍ أو انتقاص، وبالتقوى تستقيم الحياة الزوجية من أوَّلِ أمرها، فلا تبدأ بتبذير يفتح البابَ لعبثِ الشيطان، ويلحق صاحبه بإخوان الشياطين ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾[3]

وبالتقوى تستقيمُ العشرة بين الزوجين، وتسمو النفوسُ عن سفاسف الأمور، وتقصد علياءَها، ويظفر الزوجان بالنجاح في مواجهة ما يقابلهما من سرَّاءَ وضرَّاء، ويُسْرٍ وعُسْرٍ، وغضبٍ ورِضَىً.

---

(١) الإسراء: ٢٦، ٢٧.
(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم ٣٢٦٤.
(٣) الإسراء: ٢٧.

وللنفس مع كُلِّ حالٍ شأنٌ، فإن عُصِمَت بتقوى الله، لم تتعدَّ حدودَه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ (١)

فما أُمِرْنا بشيءٍ ودُعِينا إليه، أو نُهينا عن شيءٍ وأُمِرْنا باجتنابه، إلاّ وكُنّا مسئولين بين يدي الله عنه ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (٢)

إن تقوى الله التي أمرنا الله بها - رجالاً ونساءً - هي التي تُحقّقُ الطمأنينة، وتحفظ المودَّةَ والرحمةَ في حياة الأسرة. فتسكن النفسُ إلى صفاتٍ تأمَنُ معها، ويقوم البيتُ على مقوماتٍ أصيلةٍ من الأخلاق، لا تدعُ مجالاً لمرضى القلوب يعبثون بالحُرمات.

* * *

(١) النساء: ١.
(٢) الأعراف: ٦- ٩.

١٩

أخي المسلم:

لله في الآفاق وفي أنفسِنا آياتٌ تدعو إلى الحقِّ، وتُعينُ على الصدقِ، وتُوحي بالاستقامة.

ومن آياته في أنفسنا: أنْ خلَقَ منها أزواجاً؛ لنسكُنَ إليها، وجعل بيننَا مودَّةً ورحمةً. فبفضله تكونُ المودَّةُ، ومن رحمتِه يتراحَمُ الناسُ جميعاً، حتى ترفَعَ الفَرَسُ حَافِرَها عن ولدِها؛ خشيةَ أن تُصيبَهُ.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [1]

وفي قوله: ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ بيانٌ لحقيقةِ الصِّلَةِ بين الرجل والمرأة. وفي قوله: ﴿ لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ تكريمٌ للمرأةِ أيّ تكريمٍ، وبيانٌ لحقيقة وظيفتِها، وما تؤدِّيه في حياةِ الرجل ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾.

ولكي تؤدِّي المرأةُ وظيفتها التي خُلِقَت لها، عليها أن تشعُرَ بنعمةِ الله وفَضْلِه عليها.

إنَّ الرجلَ - بفطرتِه - يأوي إليها، ويسكُنُ إلى خصائصِهَا، فعليها أن تُعْنَى بهذه الخصائص، وأن تحافظ عليها، وليكُن سَعْيُها وعملُها مُتَّسقاً مع ما فُطِرَت له، فلا يرى الرجلُ منها ما يُنَفِّرُه عنها.

---

(١) الروم: ٢١.

وهي مأجورةٌ من الله حين تؤدِّي وظيفتَها على النحو الذي فُطِرَت عليه، وخُلِقَت من أجله.

وهذا جزاؤها عند ربِّها إنْ هي حقَّقت رِضَى زوجِها (في غير معصيةِ الله).

روى الترمذيُّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتْ الْجَنَّةَ » (١)

وما من شيءٍ يُحقِّقُ المودَّةَ بين الزوجين إلاَّ ودَعَى الإسلامُ إليه، وما من شيءٍ يُضعِفُ المودَّةَ أو ينالُ منها، إلاَّ وينهى عنه، ويُحذِّر منه.

في الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ » (٢)

وفي رواية لمسلمٍ: « إِذَا بَاتَتْ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاشَ زَوْجِهَا، لَعَنَتْهَا الْمَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ » (٣)

وفي رواية أن رسول الله ﷺ قال: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا، فَتَأْبَى عَلَيْهِ، إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا » (٤)

ولا يخفى ما يترتَّبُ على الهَجْرِ من آثارٍ نفسيةٍ بين الزوجين. والإسلامُ حريصٌ

---

(١) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على الزوجة، رقم ١٠٨١، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٢) البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٢٩٩٨.

(٣) مسلم: كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، رقم ٢٥٩٤.

(٤) مسلم: كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، رقم ٢٥٩٥.

على تحقيقِ المودَّةِ، والمحافظة عليها، وتيسير أسبابِ الرحمة، والحَثّ عليها.

وفي الحديث المتفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « لا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، وَلا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ... » (١)

إن الشَّرْعَ الحكيمَ وهو يأمرها بطاعةِ زوجها - في غير معصية الله - يأمُرُ الرجلَ كذلك بأن يكون حَسَنَ العِشْرَة.

روى الترمذيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ » (٢)

إن الإسلامَ يُوصي المرأةَ، ويوصي الرجلَ؛ إبقاءً للمودَّةِ والرحمةِ التي جعلها بينهما.

عَنْ عَمْرِو بْنِ الأَحْوَصِ أن رسول الله ﷺ قال: «... أَلا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا. فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. أَلا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ » (٣)

أخي المسلم: إننا جميعاً نقضي أجلاً محدوداً في دارِ اختبارٍ وامتحان. فليكُن عَزْمُنَا - دائماً - على مرضاتِ الله في جميع أمورِنا؛ فإنَّ ذلك يُحقِّقُ لنَا الطمأنينة والأَمْنَ في عاجلِ أمرِنا وآجِله.

---

(١) مسلم: كتاب النكاح، باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه، رقم ٤٧٩٦.

(٢) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١٠٨٢، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١٠٨٣، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ

وعلى المرأة أن تكونَ حريصةً - دائماً - على مرضاتِ ربِّها، في الوفاء بحقِّ زوجِها، وعلى الرجل أن يكون كذلك؛ فكلاهُما عند صاحبه دخيلٌ، يوشك أن يُفارق، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، فيما رواه الترمذيُّ عن معاذ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: « لا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ: لا تُؤْذِيهِ - قَاتَلَكِ اللَّهُ - فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ، يُوشِكُ أَنْ يُفَارِقَكِ إِلَيْنَا » (١)

إنَّ مُدَّةَ المقام في الدنيا - وإنْ طالت - يسيرةٌ، بالنَّظَرِ إلى الآخرة التي لا أَمَدَ لها، فلنحافِظ على المودَّةِ التي جعلها الله بيننا، ولنتراحم برحمةِ الله؛ فإن الراحمين يرحمهم الرحمنُ، ومَن لا يَرْحَم لا يُرْحَم. « ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » (٢)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

إن المرأةَ الصالحةَ خيرُ متاعِ الدنيا، وإليها يسكن الرجلُ ويطمئن، ويجد عندها راحةَ نفسِهِ، وطمأنينةَ قلبِهِ. ومنها يكون الجيلُ الذي تنشده أُمَّةُ الإسلامِ لِغَدِها، وتطلبه لصيانة كَرامتِها ومُقدساتها.

روى مسلمٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » (٣)

---

(١) الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، رقم ١٠٩٤، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

(٢) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم ١٨٤٧، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

(٣) مسلم: كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، رقم ٢٦٦٨.

٢٠

أخي المسلم:

يدعو الإسلامُ إلى حُسْنِ العشرة، والمودَّةِ بين الزوجين.

قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (١)

وروى مسلمٌ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لا يَفْرَكْ (٢) مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً؛ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ، أَوْ قَالَ: غَيْرَهُ » (٣)

وهذا من حِرْصِ الإسلامِ على تحقيقِ الرضا والمودَّةِ بين الزوجين. والمعنى: إذا رأى الزوجُ من زوجته ما يكرهه، فعليه أن يتأمَّلَ الجانبَ الحَسَن فيها، وليس في الناسِ معصومٌ من خطأ، والمعصومُ مَن عصمه الله من نبيٍّ ورسولٍ.

وميزانُ الإنسان من حسناتٍ وسيئات، وفلاحُه في رُجْحَان حسناته.

فلا يليقُ بالمسلم أن يلتفت إلى عيوبِ الناس، ويُنكرَ فضائلهم؛ فإن الشيطان يحرصُ - دائماً - على أن يُريكَ في أخيك ما تُبغضه؛ ليوقِعَ العداوةَ بينكما، ويُوغر الصدور بسفاسِفِ الأمور.

وقد يتساءل البعضُ: إذا كان الإسلامُ حريصاً على تحقيق المودَّةِ والرحمةِ بين

---

(١) النساء: ١٩.

(٢) أي يُبغض ويكره.

(٣) مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ٢٦٧٢.

الزوجين، فَلِمَ أباحَ الطلاقَ، وفيه ما فيه من تمزيقِ الروابط، وتفريق العِشرة ؟

والجواب: إنّ الإسلامَ شرَعَ الطلاقَ؛ لضرورته. وجعله أبغضَ الحلالِ إلى الله، وما من وسيلةٍ تجمعُ الشَّمْلَ، وتصون الأُلفةَ، وتحفظ العِشرةَ، وتحقق المودَّةَ والرحمة، إلاَّ ودَعَى الإسلامُ إليها ورغّبَ فيها.

ومن حِرْصِ الإسلامِ على قيامِ الأُلفة، وتحقيق الرحمة إنْ بَدَا خلافٌ، أو خِيفَ شِقاقٌ بين الزوجين، نَدَبَ إليه حَكَماً من أهله وحَكَماً من أهلها، وجعل سعيَهما في الإصلاحِ موفّقاً مبروراً.

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (١)

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾ (٢)

وهكذا لا يدعُ الإسلامُ سبيلاً لتحقيقِ الوفاق، ودوامِ العِشرة، وقيامها على المعروفِ، إلاَّ سَلَكَهُ.

وفي حالة الطلاق لم يجعله طَلاقاً واحداً، تنفَصِمُ معه العِشرةُ في الحالِ وكفى، بل جعله على مراحلَ يمكن معها أن يُراجِعَ الإنسانُ نفسه.

---

(١) النساء: ٣٥.

(٢) النساء: ١٢٨.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ (١)

وقد جاء في سبب نزول هذه الآيات ما رواه البخاريُّ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما « أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ؛ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ » (٢)

من هذا ندرك مدى التوسعة التي قدَّمها الإسلامُ في هذا المجال؛ لتعاود النفس أمرها، وتثُوب إلى رُشدِها ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ ﴾.

ثم بعد ذلك، وبعد تقديم النُّصحِ والإرشاد، وبَذْلِ كُلِّ ما يمكن لإصلاح ذات

---

(١) الطلاق: ١ – ٣.

(٢) البخاري: كتاب الطلاق، باب قول الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ، رقم ٤٨٥٠.

البَيْنِ، وتحقيق حياة بارَّة، هل من المصلحة في شيء - وقد عجزت جميعُ الوسائل، وأصبحت الحياةُ بين الزوجين جحيماً لا يُطاق - أن تُفرَضَ عليهما العِشرةُ، وقد يكون فيها ضرراً لأحدهما أو كلاهما ؟

لا. إنَّ الله كتب علينا الإحسانَ في الأمور كُلِّها. ومن الإحسان أن تعدِلَ في الغضب والرضى، وفي الطلاق أو الإمساك.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٍۗ ﴾ (١)

وإذا طلق الرجلُ زوجتَهُ طلقَتَيْنِ، فليتقِّ الله في الثالثة. فإما أن يُمسكها بمعروفٍ، فيُحسنُ صُحبتها، أو يُسرِّحها بإحسانٍ، فلا يظلمها من حقّها شيئاً.

هذا هو المقدور عليه. ولكنْ: هل كُلُّ سببٍ يصلح مُبيحاً للطلاق ؟

ذلك ما نحاول الإجابة عليه في الحديث القادم إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) البقرة: من الآية ٢٢٩.

٢١

أخي المسلم:

في حديثٍ سابقٍ قُلتُ: إن الإسلامَ لم يجعل الطلاقَ واحداً تنفصمُ معه العِشْرَة بل جعله على مراحلَ يمكنُ معها أن يراجِعَ الإنسانُ نفسَه، وأن تتدبَّرَ المرأةُ أمرَها، إنْ كانت قد فرَّطَت أو أساءَت ﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ (١)

وفي هذه التوسعة التي قدَّمها الإسلامُ مجالٌ لتُعاود النفسُ أمرَها، وتُثوبُ إلى رُشدها. وفي ختامِ الحديثِ السابق تساءَلنا: هل كُلُّ سببٍ يصلح مُبيحاً للطلاق؟ وهل العِشرة بين الزوجين من الهوانِ بحيثُ يجوزُ قطْعها والإضرار بها لأدنى سببٍ من الأسباب ؟ أم أنَّ الطلاقَ يكون حيثُ تُوجَد ضرورته، وقد يرفع ضرراً أشد ؟

لقد بيَّنَ العلماءُ متى يكونُ الطلاق مُباحاً ؟ ومتى يكونُ مكروهاً ؟ ومتى يكون محظوراً ؟ فيباح عند دَفْعِ الضرر، وقد يُستحبُّ إذا ما كانت المرأةُ مُفرِّطةً في حقوق الله الواجبة عليها - كالصلاة ونحوها - وقد عجز الزوجُ عن إجبارها عليها، وقدَّمَ من النُصْحِ والإرشادِ والقدوةِ ما ترتفع به المعذرة. أو كانت غير عفيفةً، وكان في إمساكِها نقْصٌ ودَناءَةٌ، ورُبَّما أفسدت فِراشَه، وأساءَت إليه، ولا ينبغي إمساك غير العفيفة. ويكون مكروهاً لغيرِ الحاجة، وقد يَحْرُم إذا أضرَّ بنفسه وزوجته.

يقول الرسول ﷺ : « لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ » (٢)

وقد يكون محظوراً وذلك إذا طَلَّقَ المدخولَ بها في حيضِها، أو في طُهرها الذي

---

(١) الطلاق: من الآية ١.

(٢) ابن ماجة: كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، رقم٢٣٣٢.

أصابَها فيه، وهو طلاق البدعة؛ لمخالفة أمرِ الله تعالى في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ﴾ (١)

وقد جاء في الحديث المتفق عليه، عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « أَنَّهُ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ؛ فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ » (٢)

والذي يتدبَّرَ شرعَ الله، ويتمسك به، ويتَّبع ولا يبتدع، لا يخالفُ ما أَمَرَ في أيِّ شأنٍ من شئونه، ولا يُصرّ على خطأ إنْ وَقَعَ منه.

وشَرْعُ الله - كما ترى - حكيمٌ، لا حَرَجَ فيه ولا عُسْر. هو لمصلحةِ الناس، يُحلُّ لهم الطيباتِ، ويُحرِّمُ عليهم الخبائثَ، فعلى الناسِ أن يتَّقوا اللهَ في جميع أمرهم، وأن يُحافظوا على الرحمةِ والمودَّةِ التي جعلها الله بينهم.

وعليهم أن يُدركوا أن الطلاقَ ما شُرِعَ إلاّ لمصلحة، فلا يليق أن يكونَ إلاّ لغرضٍ يرضاه الله ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ (٣)

قد تستحيلُ الحياةُ بين القلوب المتنافرة، فمن المصلحة أن يكون الإمساكُ

(١) الطلاق: من الآية ١.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) البقرة: ٢٨١.

بمعروفٍ، والتسريحُ بإحسانٍ، لا أن يُجبَر الزوجين - أو كلاهما - على حياةٍ لا يستقيم فيها معروفٌ أو إحسان.

وإذا كان الإسلامُ حريصاً - من أوَّلِ الأمر - على تهيئةِ جميع ما يُحقِّق الحياة الطيبة بين الزوجين، فعلينا أن نتَّبع أمرَه في حُسْنِ الاختيار، وأن نُخضعَ هَوانا لِمَا أمرَنا به من إيثارِ صاحبِ الدِّينِ، وصاحبةِ الدِّين.

ولا بأسَ أنْ نَرَى - بضوابط الشَّرْع - من المرأة ما يدعو إلى زواجها؛ لما رواه أبو داود عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ » (١)

جميع الوسائل التي تُحقِّقُ للإنسان حياةً طيبةً قد هيَّأها الإسلامُ ودعَى إليها، ورغَّبَ فيها، فعلى المرءِ أن يُحسنَ نيَّته فيما يَرْغَبُ أو يَدَع، وأن يؤثِرَ مرضاتِ الله فيما يختاره لنفسه أو يُبغضه، بأن يحب لله، ويكره لله، فإن هوى النفس إذا لم يُخضَع لحُكم الشَّرْعِ، أضلَّ وأذلَّ ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٢)

فلتكُن دوافعُنا - في الرضى والغضب، والحُبِّ والبُغْضِ - في مرضات الله وتحقيق ما أمرَ، واجتناب ما نَهَى عنه؛ فإن المعصيةَ تُورثُ المَذَلَّةَ، وتجلبُ الفتنةَ.

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (٣)

---

(١) أبو داود: كتاب النكاح، باب في الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها، رقم ١٧٨٣.
(٢) ص: من الآية ٢٦.
(٣) النور: من الآية ٦٣.

أخي المسلم: كُنْ حريصاً في حياتك كُلِّها على أن ينعمَ بيتُك بذِكْرِ الله وطاعته، وليكُن لكَ في بيوتِ النبيِّ ﷺ خيرُ أُسوة. وهذا توجيه الله لنساءِ النبيِّ ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

فلتكُن بيوتُنا على حالٍ يُمكِّنها من القُدوة والأسوة ببيوت النبيِّ ﷺ؛ لنظفرَ بالحياةِ الطيبة في عاجل الأمر وآجله.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٢)

* * *

---

(١) الأحزاب: ٣٤.

(٢) النحل: ٩٧.

٢٢

أخي المسلم:

للمرأةِ مكانتُها في الإسلام. والإسلام يوصي بها خيراً، بنتاً كانت أو أُختاً، أو زوجاً أو أُمّاً. يُوصِي بها في جميعِ الأحوال، ويجعل البرَّ بها سبيلاً لمرضاةِ الله والفوزِ بالجنة.

نقرأ في القرآن الكريم الوصيةَ بالوالدين، وتأتي الوصيةُ بهما بعد الأمرِ بعبادة الله، وعدم الإشراك به.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ (١)

﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ ﴾ (٢)

ومع الوصية بالوالدين والإحسانِ إليها تنفردُ الأُمُّ بمزيدٍ من الوصية؛ لمزيدٍ من البِرِّ وحُسْنِ الصُّحْبة.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (٣)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ

---

(١) النساء: من الآية ٣٦.
(٢) الأنعام: من الآية ١٥١.
(٣) لقمان: ١٤.

وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١)

في الآياتِ بيانٌ لما تُلاقيه الأمُّ وتُكابده في حَمْلٍ وفصَالٍ، وفي هذا البيان دعوةٌ لمزيدٍ من البرِّ والإحسان إلى الأُمِّ، ببيانِ ما لَهَا من إحسانٍ وفضل.

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾

وقد جاء في الحديث المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: « جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قَالَ: أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ. قَالَ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ » (٢)

وفي رواية: « مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ ؟ قَالَ: أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ » (٣)

وفي الحديث المتفق عليه، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما قَالَتْ: « قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: وَهِيَ

---

(١) الأحقاف: ١٥،١٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

رَاغِبَةٌ (١) أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ قَالَ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ » (٢)

وروى الترمذيُّ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ « أَنَّ رَجُلاً أَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ لِيَ امْرَأَةً، وَإِنَّ أُمِّي تَأْمُرُنِي بِطَلاَقِهَا. قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوْ احْفَظْهُ » (٣)

وروى أحمدُ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه « جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَدْتُ الْغَزْوَ، وَجِئْتُكَ أَسْتَشِيرُكَ. فَقَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ: الْزَمْهَا؛ فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا » (٤)

أخي المسلم: تلك بعض وصايا الإسلام بالأُمِّ، منها نُدركُ كيف كرَّم الإسلامُ المرأةَ، ورفع مكانَتَها، وجعل الجنةَ لِمَن بَرَّ بِهَا وأكرمها.

بل جعل البرَّ بها تكفيراً لما قد يقعُ فيه الإنسانُ من ذنبٍ أو إِثْمٍ.

روى الترمذيُّ عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا، فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ ؟ قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ ؟ قَالَ: لا. قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَبِرَّهَا » (٥)

هذا دِينُنا، وهذا ما يدعو إليه، فهل تعي المرأةُ المسلمةُ ذلكَ، فلا تُفْتَن بشعاراتِ

---

(١) أيْ في شَيْءٍ تَأْخُذُهُ وهي عَلَى شركِهَا، ولِهَذَا استَأْذَنَتْ أَسْمَاءُ فِي أَنْ تَصِلَهَا.

(٢) البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين، رقم ٢٤٢٧.

(٣) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء من الفضل في رضا الوالدين، رقم ١٨٢٢، وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

(٤) أحمد: مسند المكيين، حديث معاوية بن جاهمة السلمي ﷺ، رقم ١٤٩٨٩.

(٥) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في بر الخالة، رقم ١٨٢٧.

الغير، وتُؤخَذُ بما يُقالُ عن حريةِ وحقوق المرأة ؟

أَمَا آنَ لَهَا أن تَعِيَ مَكْرَ أولئكَ الذين يُريدونَها لشهواتِهم وأهوائِهم ؟

فإذا مَا صَارَتْ من العجائزِ أو القواعِدِ، أَلْقَوْا بها في ملجأِ العجائزِ، وحُكِمَ عليها بالموتِ حَيَّةً !

وهل تعي المرأةُ المسلمةُ ما كرَّمها الله، فتنعم بعطاءِ الخالق، وتبرأُ من عَبَثِ المخلوقين؟

* * *

٢٣

أخي المسلم:

للمرأةِ مكانتُها في الإسلام، والإسلام يُوصي بها خيراً، بنتاً كانت أو أُختاً، أو زوجاً أو أُمًّا. يُوصي بها في جميعِ الأحوال، ويجعلُ البرَّ بها سبيلاً لمرضاتِ الله والفوز بالجنة.

وفي الحديث السابق رأينا وصيةَ الإسلامِ بالأُمِّ، وما حَظِيَت به من تقديرٍ وتكريمٍ.

وهذا التكريمُ لا ينقطعُ بالموت، بل يمتدُّ. وما يُقدِّمُهُ الإنسانُ من برٍّ يبقى بعد الموت.

روى مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: « بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ: إِنِّي تَصَدَّقْتُ عَلَى أُمِّي بِجَارِيَةٍ، وَإِنَّهَا مَاتَتْ. قَالَ: فَقَالَ: وَجَبَ أَجْرُكِ وَرَدَّهَا عَلَيْكِ الْمِيرَاثُ. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ، أَفَأَصُومُ عَنْهَا ؟ قَالَ: صُومِي عَنْهَا. قَالَتْ: إِنَّهَا لَمْ تَحُجَّ قَطُّ، أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ: حُجِّي عَنْهَا » (١)

وروى مسلمٌ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: « جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ نَذْرٍ، أَفَأَصُومُ عَنْهَا ؟ قَالَ: أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ فَقَضَيْتِيهِ، أَكَانَ يُؤَدِّي ذَلِكِ عَنْهَا ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَصُومِي عَنْ أُمِّكِ » (٢)

برٌّ دائمٌ يمتدُّ وَصْلُه ولا ينقطع. ولا يأتي الموتُ إلاَّ بفرقة الأجساد، وهي فُرقةٌ لا تدومُ طويلاً، وغداً يلحقُ هؤلاء بأولئك، ويلتقي اللاحقُ بالسابق.

(١) مسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام عن الميت، رقم ١٩٣٩.

(٢) مسلم: كتاب الصوم، باب قضاء الصوم عن الميت، رقم ١٩٣٨.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾ (١)، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩ ﴾ (٢)

وإذا كان البرُّ بالوالدين لا ينقطعُ بعد موتهما، فإنّ من الواجب علينا أن نُحقّقَ ما أمرَ به الرسولُ ﷺ من: الصلاةِ عليهما (أي الدعاء لهما) وإنفاذ عهدهما من بعدها، وصلة الأرحام التي لا تُوصَلُ إلا بهما، وإكرام صديقهما.

عَنْ أَبي أُسَيْد مَالك بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعديِّ قَالَ: « بَيْنَا نَحْنُ عنْدَ رَسُول اللّه ﷺ إذْ جَاءَهُ رَجُلٌ منْ بَني سَلَمَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّه، هَلْ بَقيَ منْ برِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا به بَعْدَ مَوْتهمَا ؟ قَالَ: نَعَمْ، الصَّلاةُ عَلَيْهمَا (٣) وَالاسْتغْفَارُ لَهُمَا (٤) وَإنْفَاذُ عَهْدهمَا منْ بَعْدهمَا (٥) وَصلَةُ الرَّحمِ الَّتي لا تُوصَلُ إلاَّ بهمَا (٦) وَإكْرَامُ صَديقهمَا » (٧)

المرأةُ مُكرَّمَةٌ في الإسلام (أُمًّا أو بنتاً) أو (أُختاً أو زوْجاً) قال ﷺ: « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا » (٨)

---

(١) المجادلة: ٦.

(٢) التغابن: ٩.

(٣) أيْ الدُّعَاءُ. وَمنْهُ صَلاة الْجنَازَة.وَالْمُرَاد بهَا التَّرَحُّم.

(٤) أيْ طَلَب الْمَغْفرَة لَهُمَا، وَهُوَ تَخْصيص بَعْد تَعْميم.

(٥) أيْ إمْضَاء وَصيَّتهمَا.

(٦) أيْ الإحْسَان إلَى الأَقَارب.

(٧) أبو داود: كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، رقم٤٤٧٦.

(٨) مسلم: كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ٢٦٧١.

لقد مَحَا الإسلامُ ظلامَ الجاهلية، وأنارَ الحياةَ بنورِ الإيمانِ، ووجدت المرأةُ فيه حياتَها وكرامتَها - كما وَجَدَ الرجلُ - وحظيت بعنايةٍ فائقة منذ ولادتها، وفي جميع حياتها، وبعد مَمَاتِها: دُعاءً، واستغفاراً، وبِرًّا، ورحمةً.

وكافأَ الإسلامُ مَن رَعَاهَا، واعتنى بشأنها بجنة الله ورضوانِه، وأنْعِمْ به من جزاءٍ يتنافس عليه المتنافسون، فتحظى المرأةُ بأكرمِ الرعاية وأبرِّها. وقد كانت الجاهليةُ تراها سوءاً تتوارَى منه ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (١)

وجاء الإسلامُ؛ ليرفَعَ من شأن الإنسانِ، ويُعلي قيمتَه ذَكَراً كان أو أُنثى، رجلاً كان أو امرأةً ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ (٢)، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (٣)، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾ (٤)

---

(١) النحل: ٥٨، ٥٩.
(٢) آل عمران: من الآية ١٩٥.
(٣) النحل: ٩٧.
(٤) النساء: ١٢٤.

ولنستمع إلى حديث رسول الله ﷺ، وفيه البيانُ لما يراه الإنسانُ من أجرٍ حين يَصِلُ ما أَمَرَ الله به أن يُوصَلَ، ويُحقِّقُ ما أمر به من عنايةٍ بالمرأة، وإحسانٍ إليها، وتربيةٍ وإعدادٍ لها.

روى أبو داود والترمذيُّ، عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاثُ بَنَات، أَوْ ثَلاثُ أَخَوَاتٍ، أَوْ ابْنَتَانِ، أَوْ أُخْتَانِ، فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ، وَاتَّقَى اللَّهَ فِيهِنَّ، فَلَهُ الْجَنَّةُ » (١)

وفي روايةٍ: « مَنْ عَالَ ثَلاثَ بَنَاتٍ، فَأَدَّبَهُنَّ، وَزَوَّجَهُنَّ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، فَلَهُ الْجَنَّةُ » (٢)

وروى مسلمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ. وَضَمَّ أَصَابِعَهُ » (٣)

وأخرج الترمذيُّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ دَخَلْتُ أَنَا وَهُوَ الْجَنَّةَ كَهَاتَيْنِ. وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ » (٤)

فالحمدُ لله على نعمةِ الإسلام، وكفى بها نعمةً.

---

(١) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات، رقم ١٨٣٩، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ.

(٢) أبو داود: كتاب الأدب، باب في فضل من عال يتيماً، رقم ٤٤٨١.

(٣) مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، فضل الإحسان إلى البنات، رقم ٤٨٦٥.

(٤) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النفقة على البنات والأخوات، رقم ١٨٣٧، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ.

٢٤

أخي المسلم:

إنَّ القرآنَ الكريمَ - وقد حَفِظَهُ اللهُ رحمةً بنا، وهو أرحَمُ الرَّاحمين - يُبَصِّرُنا في جميعِ شئونِ حياتِنا ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ (١)

فما من أمرٍ يفكِّرُ الإنسانُ فيه، أو يَسْعَى إليه، إلاَّ وللقرآن فيه هُدَىً وتبصرةً.

إنه نورٌ. وهل تُدرَكُ الأشياءُ على حقيقتها، أو يهتدي الناسُ إليها إلاَّ بنور ؟!

وهل يستوي مُتَخَبِّطٌ في الظلمات ومُستَضِيءٌ بنورِ الله ؟!

هذا ينْعَمُ بالحياة، ويمشي في الناس بنور ربِّه. وذاكَ يتعثَّرُ في الظلمات، لا يخرج منها.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٢)

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الإسراء: ٩.
(٢) الأنعام: ١٢٢.
(٣) فاطر: ١٩- ٢٢.

القرآن الكريم نورٌ يهدي به الله مَن يشاء من عباده، يهديهم به في كُلِّ شأنٍ من شئونهم، ويُحقِّقُ لهم به حياةً طيِّبَةً، ينعَمُونَ فيها بنعمةِ الإيمان والحقِّ والعدلِ والتقوى والبرِّ.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

فَلْنُحْيِي قلوبَنا بالقرآن، ولْنُنِيرَ بيوتَنا به؛ فإن « الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ » (٢)

وفي البيتِ الخَرِبِ تأوي الهوامُ والحشراتُ، وتكونُ الأوبئةُ والقاذورات.

وإذا كُنَّا نعملُ – دائماً – على رعايةِ بيوتنا، والمحافظة عليها، والقيام بنظافتها، فإن أعظمَ ما يجب أن نحرصَ عليه، أن نتعهدها بذِكْرِ الله فيها، وتلاوة القرآن في جنباتها، وإنارتها به؛ حمايةً لها من الشياطين.

ولنقتَدِ ببيوتِ النبيِّ ﷺ وفيها كانت تُتْلَى آياتُ الله والحكمة ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٢) الترمذي: كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن، ما له من الأجر، رقم ٢٨٣٧، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) الأحزاب: ٣٤.

ورسولُ الله ﷺ بَشَرٌ مثلنا. يُقتَدَى به في يُسْرٍ، وبلا حَرَجٍ تُعْرَفُ حياتُه كلُّها، ولا يخفى منها شيء، ما كان يعمله في داخلِ بيته، من: غُسْله، ووضوئه، ونومه، ومُعاشَرَته لأزواجه، ومأكله ومَشْرَبه، وما يدورُ في بيوته من شئون، وما يُعَدُّ من طعامٍ، وما يُوقَدُ من سراجٍ. ما يلبسه، وما يتطيَّبُ به. هيئة فراشه، ومعاملته لأزواجه، وملاطفته لأهل بيته. ذكره لربِّه، ووقوفه في الصلاة بين يديه، ما يتلوه من قرآن، وما يواظبُ عليه من سُنَن. أُمَّهاتُ المؤمنين يُحدِّثْنَ عن كُلِّ ما يَقَعُ منه في أخصِّ شئونه، دون حَرَجٍ.

وفي خارجِ البيت حيثُ الأعيُنِ ترصده، والقلوبُ تتطلَّعُ إليه، والنفوسُ دائماً مَشُوقة لرؤيته. لا يكاد الباب يُفتَحُ، ولا يكاد رسول الله ﷺ يخرج إلى الناس - في أيِّ شأن من شئونه - حتى ترى مَن يُسجِّلُ كُلَّ شيءٍ عنه: حركات يده، وقسمات وجهه، وهيئة مجلسه، وتبسُّمه. يُسجِّلون ما ينطق به، وما يصدر عنه من قيامٍ أو قُعود، أو انتقالٍ، أو مأكلٍ أو مَشْرَب.

والصحابةُ - جميعاً - حريصون على أن يَرَوه، وأن يسمعوا منه بِقَدْرِ حفاوتهم وحِرصهم على التمسك بسُنَّته، والاهتداء بِهَدْيه.

أليستْ هذه نعمةٌ كبرى، ورحمةٌ للعالمين مُمْتدَّةٌ وباقيةٌ إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها ؟ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ (١)

والقرآن الكريم - ونحنُ نتلوه أو نستمع إليه - يُحدثنا عن بيوتِ النبيِّ ﷺ وما يقعُ فيها. فلنستمع إليه، ولنتدبَّر، ولنُحسنَ القدوة والأسوة؛ فإن الفلاح في الإتباع، والنجاةَ في الإقتداء ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ (٢)

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) الأحزاب: ٢١.

٢٥

أخي المسلم:

مع سورة (التحريم)؛ لنرى ما جَرَى في بيوت الرسول ﷺ، وما نزل من القرآن، وكيف استجابت النفوسُ، وخشعت القلوبُ، وآثرتْ ما عند الله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١) قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ (٢) وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا (٥) ﴾[1]

روى البخاريُّ ومسلمٌ والترمذيُّ والنسائيُّ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: « لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ عَنْ الْمَرْأَتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا... ﴾ حَتَّى حَجَّ عُمَرُ، وَحَجَجْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ، عَدَلَ عُمَرُ، وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالإِدَاوَةِ، فَتَبَرَّزَ، ثُمَّ أَتَانِي، فَسَكَبْتُ عَلَى

(١) التحريم: ١- ٥.

يَدَيْهِ فَتَوَضَّأَ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ الْمَرْأَتَانِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ ﷻ لَهُمَا: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا... ﴾ ؟ قَالَ عُمَرُ: وَاعَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ - قَالَ الزُّهْرِيُّ: كَرِهَ - وَاللَّهِ - مَا سَأَلَهُ عَنْهُ، وَلَمْ يَكْتُمْهُ - قَالَ: هِيَ حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ. ثُمَّ أَخَذَ يَسُوقُ الْحَدِيثَ، قَالَ: كُنَّا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَوْمًا نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَجَدْنَا قَوْمًا تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ، فَطَفِقَ نِسَاؤُنَا يَتَعَلَّمْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ. قَالَ: وَكَانَ مَنْزِلِي فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ بِالْعَوَالِي، فَتَغَضَّبْتُ يَوْمًا عَلَى امْرَأَتِي، فَإِذَا هِيَ تُرَاجِعُنِي، فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: مَا تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ لَيُرَاجِعْنَهُ، وَتَهْجُرُهُ إِحْدَاهُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ. فَانْطَلَقْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: أَتُرَاجِعِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: أَتَهْجُرُهُ إِحْدَاكُنَّ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: قَدْ خَابَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْكُنَّ وَخَسِرَ؛ أَفَتَأْمَنُ إِحْدَاكُنَّ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا؛ لِغَضَبِ رَسُولِهِ ﷺ ؟ فَإِذَا هِيَ قَدْ هَلَكَتْ. لا تُرَاجِعِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَلا تَسْأَلِيهِ شَيْئًا، وَسَلِينِي مَا بَدَا لَكِ، وَلا يَغُرَّنَّكِ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكِ هِيَ أَوْسَمَ وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْكِ. يُرِيدُ عَائِشَةَ. قَالَ: وَكَانَ لِي جَارٌ مِنْ الأَنْصَارِ، فَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَيَأْتِينِي بِخَبَرِ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَآتِيهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ الْخَيْلَ (١) لِتَغْزُوَنَا، فَنَزَلَ صَاحِبِي، ثُمَّ أَتَانِي عِشَاءً، فَضَرَبَ بَابِي، ثُمَّ نَادَانِي فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. قُلْتُ: مَاذَا ؟ أَجَاءَتْ غَسَّانُ ؟ قَالَ: لا، بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَطْوَلُ. طَلَّقَ النَّبِيُّ ﷺ نِسَاءَهُ. فَقُلْتُ: قَدْ خَابَتْ حَفْصَةُ وَخَسِرَتْ، قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ هَذَا كَائِنًا. حَتَّى إِذَا

---

(١) بِضَمِّ التَّاءِ، مِنَ الإِنْعَالِ. يُقَالُ: نُعِلَتْ، وَانْتَعَلَتْ: إِذَا لَبِسَتِ النَّعْلَ، وَأَنْعَلْتُ الْخَيْلَ: إِذَا أَلْبَسْتَهَا. وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ اسْتِعْدَادِهِمْ لِلْقِتَالِ مَعَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

صَلَّيْتُ الصُّبْحَ، شَدَدْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي، ثُمَّ نَزَلْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ وَهِيَ تَبْكِي، فَقُلْتُ: أَطَلَّقَكُنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالَتْ: لا أَدْرِي، هَا هُوَ ذَا مُعْتَزِلٌ فِي هَذِهِ الْمَشْرُبَةِ (١) فَأَتَيْتُ غُلامًا لَهُ أَسْوَدَ، فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ، فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ، فَجَلَسْتُ فَإِذَا عِنْدَهُ رَهْطٌ (٢) جُلُوسٌ يَبْكِي بَعْضُهُمْ، فَجَلَسْتُ قَلِيلاً، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَجِدُ، ثُمَّ أَتَيْتُ الْغُلامَ، فَقُلْتُ: اسْتَأْذِنْ لِعُمَرَ. فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ فَقَالَ: قَدْ ذَكَرْتُكَ لَهُ فَصَمَتَ. فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا، فَإِذَا الْغُلامُ يَدْعُونِي، فَقَالَ: ادْخُلْ؛ فَقَدْ أَذِنَ لَكَ، فَدَخَلْتُ فَسَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِذَا هُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى رَمْلِ حَصِيرٍ (٣) قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْتُ: أَطَلَّقْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ نِسَاءَكَ ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، وَقَالَ: لا. فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ... » (٤)

أخي المسلم: هل تدبَّرْتَ ما سمعتَ، ورأيتَ بعضَ ما كان في بيوتِ النبيِّ ﷺ ؟

هل رأيتَ حِلْمَهُ ورحمتَهُ، وكيفَ كان أزواجُه يُراجعْنَهُ، وتهجره إحداهُنَّ اليومَ إلى الليل. سنسمع من عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما رأى في بيت الرسول ﷺ، وما تَمَّ مع أزواجه؛ ليتأسَّ الرجالُ بنبيِّهم ﷺ في معاملة الأزواج؛ وترى النساءُ ما كان عليه أمهاتُ المؤمنين من حُسْنِ الاستجابة والطاعة لِمَا أمر اللهُ به، وما دَعَى رسولُ الله ﷺ إليه.

* * *

---

(١) المشْرَبة: الموضعُ الذي يُشْرَب منه.

(٢) الرَّهط من الرجال ما دُون العَشرة. وقيل: إلى الأربعين، ولا تكونُ فيهم امرأةٌ.

(٣) يُقال: رمل الحصير إذا نَسجَهُ. والمُراد ضُلوعه المُتداخلة بمنزلة الخُيُوط في الثَّوب المَنْسُوج، وكأنَّهُ لمْ يكنْ فوْق الحصير فراش ولا غيْره، أوْ كانَ بحيْثُ لا يمْنع تأثير الحصير.

(٤) مسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، رقم ٢٧٠٧.

٢٦

أخي المسلم:

الحديثُ عن المرأةِ في القرآن الكريم يُصاحِبُ الحديثَ عن الرَّجُلِ في كثيرٍ من الآيات، وفيما فَرَضَ الله وأوجَبَ على عباده.

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ ﴾ [1]، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [2]

وقد ينفردُ الرجلُ، وقد تنفردُ المرأةُ في حديثٍ يَخُصُّهُ أو يَخُصُّها بما يتَّفِقُ مع فطرتِها أو فطرتِه.

وفي قصص القرآن للمرأة نصيبٌ، تُذكَرُ المرأةُ كما يُذكَرُ الرجلُ، ويأتي الحديثُ عِبرةً لأولي الألباب، وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [3]

والقَصَصُ غَيْبٌ من الغيبِ، ما كان الرسول ﷺ يعلَمه، وما كان لدى أصحابه إذْ وَقَع، وما كان لقومه عِلْمٌ به، ولا درايةٌ بحقيقته.

---

(١) آل عمران: من الآية ١٩٥.
(٢) النحل: ٩٧.
(٣) يوسف: ١١١.

وما كان يدور على ألسنةِ أهل الكتاب من قصصٍ لا يَسْلَمُ من تحريفٍ أو تبديلٍ.

فجاء القصصُ في القرآنِ بالحقِّ الذي لا مِراءَ فيه، وبالبيان المُنْصِف للحقيقة، وبالعِبرة والموعظة والذِّكرى.

﴿ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (١)

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (٢)

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (٣)

قلتُ: للمرأةِ في قَصَصِ القرآن نصيبٌ، وفي الحديث عنها عِبرةٌ وموعظةٌ وذِكرى للرجال والنساء جميعاً، في كُلِّ زمانٍ ومكان.

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٤)

فلنستمع إلى القرآن وهو يُحدِّثنا عن (مريمَ ابنة عمران) وما كانت عليه من كريمِ الخصال، وما أثابَها الله من فَضْلٍ، وما بشَّرها به من عطاءٍ.

لقد ذُكرت مَرْيَمُ في القرآن مِن ولادتِها، بل مِن حَمْلِ أُمِّها، وقد تَمنَّت أن

(١) هود: من الآية ١٢٠.
(٢) هود: ٤٩.
(٣) يوسف: ١٠٢.
(٤) البقرة: من الآية ٢٦٩.

تُرزَقَ ذَكَراً، ونَذَرت أن تجعل ما في بطنِها مُحَرَّراً.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (١)

لقد برَّت امرأةُ عمران بِنَذْرِها، وَوَفَّتْ به، وقدَّمت مريمَ - حين وُلِدَت - لمَا نُذِرت له.

وقَبِلَ الله منها، وأتمَّ نعمتَهُ عليها، وأنبتها نباتاً حسناً، وجعل (زكريا) كافلاً لها بعد تنافسِ (الأحبار) عليها، كُلٌّ يريدُ كفالتها؛ لأنها بنتُ أُمِّهَا، وقد طلبها زكريا عليه السلام؛ لأن خالتها عنده، لكنَّ الأحبار أَبوا إلاَّ أن يقترِعُوا عليها، فألقوا أقلامَهم أَيُّهُم يَكْفُلُ مريمَ، فكان من توفيق الله ورعايته أن جعلَ (زكريا) كافلاً لها، بعد أن اختصموا وأَلْقَوْا سهامَهم للقُرْعَةِ، كُلٌّ يريدها في كَنَفِهِ ورعايته.

وما كان الرسولُ ﷺ حاضراً وهم يُلْقُونَ أقلامَهم، وما كان لديهم وهم يتنازعون فيمَن يَكْفُلها منهم، ولكنَّه وحي الله لنبيِّه، يُوحي إليه بغيبه.

---

(١) آل عمران: ٣٥- ٣٧.

﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ ﴾ (1)

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ (2)

أخي المسلم: في قصص القرآن عِبرةٌ لأولي الألباب، وهُدىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون.

وعِبرتنا فيما سَمعنا: أنَّ عطاءَ الله وفضلَه يَخُصُّ به مَن يشاء من عباده، وأنه - جَلَّ شأنُه - يرزقُ مَن يشاء بغيرِ حساب.

كان زكريا عليه السلام كُلَّما دخل على مريمَ المحرابَ وَجَدَ عندها رزقاً، وكان يعجبُ من فيضِ العطاء لها، والبرِّ بها، فيسألها: ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ ﴾ ؟ فتقول: ﴿ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

اعترافٌ بنعمةِ الله ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (3)

---

(1) الجن: ٢٦، ٢٧.
(2) آل عمران: ٤٤- ٤٧.
(3) الحديد: من الآية ٢١.

٢٧

أخي المسلم:

في قصص القرآن عِبْرَةٌ لأولي الألباب، وهُدىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون. وللمرأةِ في قصص القرآن نصيبٌ.

وفي الحديث الماضي كُنَّا مع نصوصِ القرآن وهو يُحدِّثنا عن مريمَ ابنةِ عمران التي قال الله عنها: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ (١)

لقد لاَقَت في حياتِها ما يَلقاه المؤمنُ من بلاءٍ، يتعرَّضُ له من سفاهة السفهاء، وكَيْدِ المجرمين، لكنَّ الله ﷻ يُدافِعُ عن الذين آمنوا. وهذا وعْدٌ منه لا يتخلَّف.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٢)

والله ﷻ يُذكِّرنا بقصةِ مريم في كتابه، ويأمرُ نبيَّه ﷺ أن يذكُرها؛ ليعرف الناسُ فضلَ ربِّهم ورحمته بخلقه، وقُدرته وهو يخلقُ ما يشاء، ويرزق مَن يشاء، ويؤتي فضله مَن يشاء.

وما على الإنسانِ إلاَّ أن يُخلِصَ القَصْدَ لربِّه، ويُحسن التوجُّهَ إليه، ويرجوه ولا يرجو سواه، ويتوكَّل عليه، ويتوب إليه، ويرضى بقضائه رِضَى العارفِ بفضله، المؤمن بحكمته، المحسن في عمله، المُتبع لشرْعِه، المُصدِّق بكلماته وكُتبه وملائكته وجميع رُسُلِه.

---

(١) التحريم: ١٢.
(٢) الحج : ٣٨.

ما على الإنسان إلاَّ أن يَفِرَّ إلى الله في كُلِّ عملٍ، وأن يُؤْثِرَ رضاه في كل ما يعرض له، نيةً، وقَوْلاً، وعملاً.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ (١)

فلنستمع إلى ما قصَّه القرآنُ علينا في أَمْرِ مريمَ ابنة عمران، أُمِّ عيسى عليه السلام؛ لنأخُذَ العِبرةَ، ونظفرَ بالموعظةِ والذِّكرى، ونقف على حقائق الأمور، فنستمسك بالحقِّ.

والكُلُّ مسئولٌ بين يدي الله عمَّا جاء به المرسلون.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (٢)

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٣)

هذا حديثُ القرآن عن مريم ابنة عمران في حَمْلِها، وولادتها، وصِدقها، وعفافِها، وطُهرِها، وقُنوتِها.

فلنستمع إليه، ولْتَرَ المرأةُ المسلمةُ ما كانت عليه المؤمنات القانتات الصادقات.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

(١) الكهف: ١١٠.
(٢) الأعراف: ٦، ٧.
(٣) الحجر: ٩٢، ٩٣.

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن
كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً
لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾
فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟
يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا
﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ
ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا
دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ
أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا
كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ
رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (1)

قدرةُ الإله القادر الذي يقول للشيء: كُن، فيكون. وكُلُّ شيء عليه هَيِّن.

---

(1) مريم: ١٦- ٣٦.

عذراءُ لم يَمْسَسْهَا بَشَرٌ، كيف تواجهُ مَن حَوْلَها بِحَمْلِها ؟ وماذا تقول ؟

فَلْتَسْكُت هي، وليتكلم مَن لا يُعْهَد أن يتكلّم مثلُه ! وليَقُل ما أُلْقِي عليه، وما أُمِرَ به.

ولم يكن قولُه دفاعاً عن أُمِّه، وإنما كان تقريراً عمَّا هو عليه، وما أعدَّه الله له.

ويأتي قولُه متضمِّناً لهذا وذاك، فإن الحديث من مثله له دلالته في تبرئة أُمِّه، وتبليغ ما أَذِنَ الله به.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ (١)

تكريمٌ أيُّ تكريمٍ لِمَن يختاره الله ويرتضيه ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ (٢)

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ هكذا يُعلنُ عيسى عليه السلام عبوديته لله، ويُعلنُ أنَّ الله جعله نبيًّا، لا ولداً ولا شريكاً.

وباركَ فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مُدَّةَ حياته، كما أوصاه بالبرِّ بوالدته.

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ ﴾

هكذا يُعلنُ عيسى عليه السلام، وهكذا كانت أُمُّه.

---

(١) مريم: ٣٠.

(٢) الحج: ٧٥.

٢٨

أخي المسلم:

في قصص القرآن عِبْرَةٌ لأولي الألباب، وهُدَىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)

وللمرأة في قصص القرآن نصيبٌ. تعلُو بفضائلها، وتسمو بأخلاقها، وتنعم بفضل ربِّها، فَتُضْرَبُ مثلاً للذين آمنوا.

وكَم لنساءٍ فُضْلَيات مِن مواقفَ تُذْكَر، وكَم لَهُنَّ بالإيمانِ من حياة.

﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

من قبلُ رأينا ما كانت عليه مريمُ ابنة عمران، أُمُّ عيسى عليه السلام وما تلا القرآنُ في شأنها من آياتٍ يُتَعبَّدُ بها، ويُتقرب إلى الله بتلاوتها.

وها نحنُ نمضي معاً؛ لنقرأ عن أُمِّ موسى عليه السلام، ونتدبَّر ما ذكره القرآنُ في شأنها، وما قابلت من المصاعب والمشقات، وما مَنَحها الله من فضلٍ، وما أمدَّها به من وحيٍ.

لقد وُلِدَ موسى عليه السلام في وقتٍ كان الوعيدُ فيه مُسلطاً على كُلِّ مولودٍ ذَكَرٍ يُولَدُ من بني إسرائيل.

(١) يوسف: ١١١.

(٢) المائدة: من الآية ٥٤.

هكذا فعل فرعونُ، وهكذا سوَّلَت له بطانتُه، وأهلُ الضلال من حوله.

كُلُّ مولودٍ ذَكَرٍ يُولَدُ من بني إسرائيل يُذْبَح.

(لـمـــاذا ؟)؛ لأنه رأى رؤيا فُسِّرَت له بأن مولوداً يُولَدُ في بني إسرائيل يذهب ملكُه على يديه، ويكون هلاكُه بسببه. فأمر أن يُقْتَلَ كُلُّ مولودٍ ذَكَر من بني إسرائيل، وأن تُتْرَك الأنثى على قَيْدِ الحياة؛ لخدمته.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (١)

في هذا الجو الخانق، والوعيد المُسلَّط على كُلِّ أُمٍّ - بأنَّ ما في بطنِها مُعَرَّضٌ للذَّبْحِ إنْ كان ذَكَراً - في هذا الوقت وُلِدَ موسى عليه السلام.

وُلِدَ في عامٍ يُذْبَحُ فيه كُلُّ مولودٍ ذَكَرٍ من بني إسرائيل. وأُمُّهُ تعرف ذلك، وتعرف ما يتعرَّضُ له وَليدُها ساعةَ وجودِه.

فماذا تفعل الأُمُّ ؟

وكيف تحمي رضيعَها ؟

وماذا يكون حالُها وابنُها يُذْبَحُ أمـــام عينيها، أو يُؤْخَذُ من بين يديها، لا ليُكْرَمَ، بل ليُقْتَل ؟

وَهُوَ إنْ أُخذَ للإكرام، لم تطب نفسُها؛ لأن سعادتَها أن تقومَ (هي) بإكرامه ورعايته. فما بَالُكَ وهو يُؤْخَذُ ليُذْبَح ؟!

---

(١) القصص: ٤.

ماذا تفعل أُمُّ موسى في هذا الأمر الذي لا طاقةَ لها به ؟

لا بُدَّ من قوَّةٍ. وهي لا تملك هذه القوَّة، وليس مِن حولها مَن يدفع الفسادَ أو يرُدّه، وقومُها مُستَضْعَفون مُستَذَلُّون.

إنها تلجأ إلى الله؛ تنشدُ فضلَه، وترجو رحمته.

وهذا فضلُ الله عليها، وعونُه لها.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾(1)

فاستجابت لأمرِ ربِّها، وجعلت وليدَها في صندوقٍ، وألقته في اليَمِّ !

ومضى اليَمُّ به إلى أنْ ألقاهُ بالساحلِ. (عندَ مَن ؟)

عندَ مَن بغى وتجبَّر. عند عدوِّ الله وعدُوِّه.

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾(2)

إن مَن حفظه الله لا يمكن أن يُضيِّعه الناسُ. ومَن أحبَّه الله ألقى في قلوبِ الناس حُبَّه.

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾

(1) القصص: ٧.
(2) طه: ٣٨، ٣٩.

ألقَتْ أُمُّ موسى برضيعِها كما أُوحِيَ إليك، لكنَّ قلبَها تعلَّق به، ولم يُشغَل بغيره، حتى كادت - لِفَرْطِ وَجْدِها - أن تُحدِّثَ بأمرها، لكنَّ الله ربَطَ على قلبِها، وجعلها توقن بوعدِه، فأمرت أُختَهُ أن تتتبَّعَ أَثَرَه، وتعلمَ خَبَرَه، وتنظر ما يُفعَلُ به.

وفعلت الأختُ ما أُمِرَت به، وأبصرت أخاها وقد التقطه آلُ فرعون، وهي مستخفية عنهم، لم تُظهِر نفسَها إلاَّ حين رأتهم يبحثون له عن مُرضِعَة، فدلَّتهم على مرضعة تَكْفُله وترعاه. وكانت هذه المرضعة هي (الأُمُّ) التي وعدها اللهُ بِرَدِّه إليها، فقَرَّت عينُها. وعاد إليها برزق ربِّها، تُرضعه وتأخذُ أجراً! ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ ﴾ (1)

حَفظَ الله رضيعَها، وحرَّم عليه المراضِعَ، وجعله لا يقبَلُ ثَدْيَاً إلاَّ ثَدي أُمِّه، وسخَّر آلَ فرعون لخدمته وحمايته! ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣ ﴾ (2)

---

(1) طه: من الآية ٤٠.

(2) القصص: ٩- ١٣.

٢٩

أخي المسلم:

في قصص القرآن عِبرةٌ لأولي الألباب، وهُدىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون.

وللمرأةِ في قصص القرآن نصيبٌ. من النساء منَ ضربَها اللهُ مَثَلاً للذين آمنوا، ومنهُنَّ مَن سَمَت بخصالِها، وعَلَتْ بفضائِلها، ونَعِمَت بفضلِ ربِّها.

وبالإيمانِ تسمو النفوسُ، وتثبُت أمام الشدائد والمِحَن بتثبيت الله لها.

وكَم للإيمانِ من نتائجَ وآثار، في الدنيا والآخرة..

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾(١)

بالإيمان تعزُّ النفوسُ، وتفوزُ برضوانِ الله ورحمته. وللإيمان آثارُه ونتائجه في الحياة الدنيا وفي الآخرة. والقرآن الكريم يُحدِّثُنا عن رجالٍ مؤمنين ونساءٍ مؤمنات؛ لتحسن القدوة، وتتحقّق الأُسوة في بَشَرٍ من الناس جاءوا إلى الحياة الدنيا، فكان لهم بالإيمان ثباتٌ

---

(١) الحديد: ١٢- ١٤.

أمام زَهرتِها، وعِفَّةٌ عن التطلع إلى لَهْوِها وزينتها، بل وَصَبْرٌ أمام بأسائِها وضرَّائها.

ومن النساء مَن توفَّرت لها جميعُ أسباب المُتَعِ والزينة، لكنها - بإيمانها - أبصرت العواقبَ، ولم تُفتَن بالرغائب، فكَفَّتْ بصرَها عن الزائل الفاني، وأبصرت الباقياتِ الصالحات، فعاشت في دُنياها تؤثِرُ رِضى ربِّها، وترجو رحمته، وتنشد الحقَّ، وتؤيِّدُ أهلَه، وتُحقِّر الباطلَ، وتُبغِض أهلَه، وتتحمَّل في سبيل ذلك من المصاعبِ ما ترجو به رحمةَ ربِّها.

كم من النساء لَهُنَّ مواقفُ يتطلَّعُ إلى مثيلِها عظماءُ الرجال، ويذَّكر بها أولو الألباب.

هذه امرأةُ فرعون تُذْكَرُ في القرآن الكريم في موضعين: في سورة (القصص)، وفي سورة (التحريم).

في سورة القصص: حين ألقت أُمُّ موسى بابنِها في اليَمِّ، كما أوحى الله إليها. ألقته حين خافَت عليه، وألقاه اليَمُّ بالساحلِ، والتقطه آلُ فرعون.

عندئذٍ كان لامرأة فرعون موقفٌ أعدَّها الله له.

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ (١)

وفي **سورة التحريم** ضربها الله مَثَلاً للذين آمنوا؛ لثباتها على الحقِّ وإيثارِها ما عند الله.

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ

---

(١) القصص: ٩.

بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (١)

الإيمانُ به تُعَزُّ النفوس وبه تتراحم، وبه يتمُّ الثبات في السرَّاء والضرَّاء، فلا الرغائبُ تصرفُ النفوسَ عن النظر إلى العواقب، ولا المصائبُ تُقعدها عن السعي إلى مرضات ربِّها والرضى بقضائه.

إنْ جاءت السرَّاءُ قُوبِلَت بالشكر، وإنْ كانت الضرَّاءُ عُولِجَت بالصبر. والإيمان يُحقِّقُ الرضا عن الله في جميع الأحوال.

أخي المسلم: في قصص القرآن عِبْرَةٌ لأولي الألباب، وهُدىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون. وامرأةُ فرعون - وقد ضربها الله مَثَلاً للذين آمنوا - قد عَلَت بإيمانها، ولم تخضع للمؤثرات من حولِها، وتبرَّأت من كُلِّ شيءٍ يخالفُ أَمْرَ ربِّها. تبرَّأت من الظُّلْمِ وأهله، كما تبرَّأت من فرعونَ وعمله، وطلبت من ربِّها بيتاً في الجنة.

﴿ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾.

وهو دعاءٌ يُنْبِئ عن التجرد لله والإخلاص له، وحُسْنِ التوجُّهِ إليه، كما يُنْبِئ عن تعلُّقها بما عند الله، وإيمانِها به.

لم تكن (إِمَّعَــةً) تُطاوِعَ الناس فيما يعملون، وتُقلِّدهم دونَ نظرٍ وتدبُّرٍ.

بل تَزِن أمورَها بميزانِ ربِّها. فما كان فيه رِضَىً لله، سَعَت إليه، وقامت به، وما كان مُخالِفاً لأمره، بَعُدَت عنه، ولم تعبأ به.

(١) التحريم: ١١.

عاشت فِي مجتمعٍ استخفَّه طاغيةٌ فأطاعه، كما قال الله ﷻ: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (١)

عاشت في خِضَمِّ هذا الكُفْرِ الطاغي، فلم تخضع لمؤثِّراته، بل رفعت رأسَها إلى السماء، وقالت: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وهكذا يجبُ أن تكونَ المرأةُ.

مسئولةً عن ذاتِها، مُحاسَبَةً على عملها.

كما يجب أن يكون الرجل.

عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَكُونُوا إِمَّعَةً (٢)، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا. وَلَكِنْ وَطِّنُوا (٣) أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلا تَظْلِمُوا » (٤)

* * *

(١) الزخرف: ٥٤.

(٢) الإمَّعَة: هُو الَّذي يُتابعُ كُلَّ نَاعِقٍ، ويَقُولُ لِكُلِّ أَحَد: أَنَا معك؛ لأَنَّهُ لا رَأْيَ لَهُ يَرْجِعُ إِلَيْه. وَمَعْنَاهُ: الْمُقَلِّدُ الَّذي يجْعلُ دِينَهُ تابِعًا لِدِينِ غيْرِه بلا رُؤْيَةٍ ولا تَحْصِيل بُرْهَان

(٣) تَوْطِينُ النَّفْسِ تَمْهِيدُهَا. يقَال: وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى الأَمْرِ وَلِلأَمْرِ، هَيَّأَهَا لِفِعْلِه وَحَمَلَهَا عَلَيْه

(٤) الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، رقم١٩٣٠، وقال: هَـذَا حَـدِيثٌ حسنٌ غريبٌ.

٣٠

أخي المسلم:

في قصص القرآن عِبْرَةٌ لأولي الألباب، وهُدىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون.

وللمرأةِ في قصصِ القرآن نصيبٌ. تُذْكَرُ مؤمنة وكافرة، وتُضرَبُ مَثَلاً للكافرين والمؤمنين.

وقد استمعنا للقرآن من قبل وهي تُضْرَبُ مَثَلاً للذين آمنوا في ثباتِها، وصِدقها، وعِفّتها. وإيثارِها ما عند الله.

كما تُضْرَبُ مَثَلاً للذين كفروا حين تتوفَّرُ لها القدوةُ الحسنةُ، والبيئة الصالحة، وتُبلَّغ بدعوة الله على ألسنة رُسُله، فتأبى وتُعرض، وتظلم وتكفُر، فيكون جزاؤها أن تَهلك مع الهالكين.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ (١)

وكانت خيانتهما في (الدِّين)؛ إذ لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدَّقاهما في الرسالة ﴿ فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

لا مُجاملةَ ولا مُحاباةَ.

---

(١) التحريم: ١٠.

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (١)

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ (٢)

والله جَلَّ وعَلاَ ليس بينه وبين أحدٍ نَسَبٌ إلاَّ الطاعة، فالانتساب إلى النبيِّ أو الرسول إنما هو انتسابُ إيمانٍ وعملٍ صالحٍ.

وها هو النبي ﷺ يقولُ لابنته: « يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي؛ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا » (٣)

وهذا ابنُ نوحٍ الطَّيْكُلا لم ينفعْهُ أباهُ، بل أَبْعِدَ الابنُ بكُفْرِه ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝ ﴾ (٤)

و"أبو لهبٍ" لم تنفعْهُ قَرابتُه من نبيِّ الرحمةِ ﷺ، بل ذهب به كُفرُه إلى نارٍ ذاتِ لَهَبٍ، وفيه نزل قولُه تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ ﴾ (٥)

العقيدةُ هي الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان. وعليها تقوم أُخوَّةُ الإيمان.

---

(١) النساء: من الآية ١٢٣.

(٢) الزلزلة: ٧، ٨.

(٣) البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب، رقم ٢٥٤٨.

(٤) هود: من الآية ٤٣.

(٥) المسد: ١- ٥.

ومن يومِ أنْ نادى رسولُ الله ﷺ في مكةَ بهذا النداء (لا إله إلا الله، وحده لا شريكَ له)، ودَعَا الناسَ إلى (شهادةِ أن لا إله إلاّ الله، وأنَّ محمداً رسول الله) قرَّبَ نداءُ العقيدة بين المؤمنين، دونَ نَظَرٍ إلى أوطانِهم أو ألوانِهم أو قبائِلهم.

قرَّبت العقيدةُ بين بلالَ الحبشي، وصهيب الرومي، وأبي بكرٍ القرشي، وجمعتهم على أخوة الإيمان متوادِّين مُتحابين.

لا يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ.

إنَّ ميزانَ التقبُّل عند الله هو (التقوى).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (١)

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ (٢)

وعندما يضربُ اللهُ الأمثالَ للناس في القرآن إنما يريدُ لهم أن يستبصروا، وأن يعتبروا، وأن يعرفوا سُنَنَ الله في خَلْقه.

فامرأةُ نوحٍ وامرأةُ لوطٍ كانتا تحت عَبْدَيْنِ من عبادِ الله صَالِحَيْنِ، فلم يُغنيا

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) المؤمنون: ١٠١- ١٠٤.

عنهما من الله شيئاً حين كفَرَا وجحدا، وكذَّبا رُسُلَ الله.

والإيمان - وحده - هو الذي يُلْحِقُ الخَلَفَ بالسَّلَفِ، والأبناءَ بالآباءِ، ويجمعُ الأهلَ في رحمة الله ورضوانه ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ (١)

الله - جلَّ وَعَلا - يضربُ الأمثالَ للناسِ؛ لكي يتدبَّروا، ويتَّبعوا سُبُلَ الناجين المُفلحين من عباده، ويجتنبوا سُبُلَ الهالكين. ومع البيانِ تنقطعُ الحُجَّة والمعذرة.

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ (٢)

الإيمانُ هو النَّسَبُ الذي يعلو به الإنسانُ ولا يهبط، وبه يَرْفَعُ الله أقواماً وَيَضَعُ آخرين.

وإذا كان القرآن الكريم قد بَيَّنَ لنا ما وَقَعَ من امرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ من كُفْرٍ وتكذيبٍ، فلنحذر نحنُ ما يؤدِّي إليه من شِرْكٍ ظاهرٍ وخفيٍّ؛ فإننا - جميعاً - سنلقى الله، ونُحاسَبُ بين يديه ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ (٣)

---

(١) الطور: ٢١.
(٢) النساء: ١١٥.
(٣) طه: ٧٤- ٧٦.

٣١

أخي المسلم:

في قصص القرآن عِبْرَةٌ لأولي الألباب، وهُدىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون. وللمرأةِ في قصص القرآن نصيبٌ. تُضْرَبُ مَثَلاً للكافرين، وتُضْرَبُ مَثَلاً للمؤمنين.

ففي سورة (التحريم) نسمعُ قولَه تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾[1]

والمؤمنُ حين يتدبَّر هذا المَثَلَ يُدركُ أن نَسَبَه الذي يعلو به (إيمانُه وعملُه)، فامرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ كانتا تحت عبدَيْن صالِحَيْن، رسولَيْن كريمَيْنِ، فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً، وقيل: ادخلا النارَ مع الدَّاخلين.

ولقد أدرك صحابةُ رسول الله ﷺ ذلك، فلم يُشغَلوا بغير طاعة الله وتقواه، ولم يُشرَّفوا بغير الإخلاص له، وحُسْنِ التوجّه إليه.

أرسل عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، فَقَدِمَ عليه، فأمَّرَهُ على حربِ العراق، وأوصاه قائلاً:

« يا سعد بني وُهَيْب، لا يغُرَّنَّكَ من الله أن قِيلَ خال رسول الله ﷺ وصاحبه؛ فإن الله عز وجل لا يمحو السَّيئ بالسَّيئ، ولكن يمحو السَّيئ بالحسن، وإن الله ليس بينه

---

(١) التحريم: ١٠.

وبين أحدٍ نسبٌ إلاّ طاعته، شريفُهم ووضيعُهم في ذات الله سواء، الله ربُّهم وهم عبادُه، يتفاضلون بالعاقبة، ويُدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمرَ الذي رأيتَ النبي ﷺ - منذ بُعث إلى أن فارقنا - فالزمه؛ فإنّه الأمر. هذه عظتي إيَّاك، إنْ تركتها ورغبت عنها، حبِط عملُك، وكنتَ من الخاسرين »(١)

إن خطيئةَ الإنسانِ تُحيطُ به مهما عَلا نَسَبُه، وليس بين الله وبين أحدٍ نَسَبٌ إلاّ طاعته.

ولذلك عندما جاءت الملائكةُ إلى نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام؛ لينفِّذوا ما أُمِرُوا به لم تسلم امرأتُه من العذاب، بل أصابها ما أصابَ قومَها من دمارٍ وهلاك.

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ ﴾(٢)

عندئذٍ كَشَفَ الملائكةُ عن حقيقتهم، وأظهروا ما جاءوا لأجلِه، وأنهم جاءوا لتدمير أهلِ الشَّرِّ والفساد، ومنهم امرأةُ لوطٍ.

ولم يَنْجِ من أهله إلاّ مَن كان مؤمناً صالحاً ﴿ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ

(١) تاريخ الطبري: ٢/٣٨٢، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٧هـ.
(٢) هود: ٧٨- ٨٠.

أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ (1)

هلكوا بذنوبهم، ودُمِّروا بظُلمهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (2)

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (3)

أخي المسلم: هكذا يُعلِّمنا القرآنُ أنَّ نَجاةَ الإنسانِ في إيمانه واستقامته، وهلاكه في ظُلمه وفِسقه، وأنَّ سُنَنَ الله في خَلقه لا تتبدَّل ولا تتحوَّل.

---

(1) هود: ٨١– ٨٣.

(2) هود: ١٠٢.

(3) العنكبوت: ٣١ – ٣٥.

٣٢

أخي المسلم:

في سورة (يُوسُف) يَقُصُّ علينا القرآنُ الكريمُ ما وقع من امرأةِ العزيز، وما أصاب يوسُفَ عليه السلام من كَيْدٍ.

وعندما نتدبَّرُ الآياتِ التي وردَ فيها ذِكْرُ امرأة العزيز، نقفُ على أمورٍ تكونُ لنا مناراتٍ في حياتِنا، ومعالمَ في طريقنا:

يُوسُفُ عليه السلام - وهو الكريمُ ابنُ الكريمِ بنُ الكريمِ بنُ الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - لقيَ من ضُروبِ المِحَنِ والشدائدِ - ما قَصَّ القرآن الكريم علينا من كَيْدِ إخوته، وتآمُرِ النسوةِ عليه في بيت امرأة العزيز، وفي السجن كذلك.

أذىً من القريب والبعيد. !!

تعلَّقت به امرأةُ العزيز، وراودته عن نفسه بشتَّى طرائق الفتنة والإغراء..

وزوجُها لا يخلو من التَّبِعة، ولا يُعفَى من المسئولية؛ فهو الذي هيَّأ الفتنةَ لزوجه، ولم يكن حاسماً فيما بَدَا من أمرِها، وظَهَرَ من كيدِها.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ

وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (١)

وليس كُلُّ الناسِ يوسُف الْعَلِيْلاً في عِفَّته وصِدقه، وإخلاصه لربِّه.

ومن البَلاهَةِ أن نَظُنَّ العصمةَ في أحد؛ فالمعصومُ مَن عَصَمَهُ الله.

فَبُعْدُ الرجالِ عن النساء، وتجنُّب مخالطتهنَّ يُعِينُ على عِفَّةِ المرأة، ويصونها، كما يُعِينُ على طُهْرِ المجتمع وبُعْدِه عن الرذيلة.

فهذه امرأة العزيز تراودُ يوسفَ عن نفسه.

إنه قريبٌ منها، وقد فُتِنَت به. إنه في بيتِها، وليس بعيداً عنها ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾

لقد حَفِظَ يوسفُ الْعَلِيْلاً حُرْمَةَ البيت، ولم يَخُنْ صاحبَه، واستعصم ولَجأَ إلى ربِّه أنْ يصرِفَ عنه الكيدَ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢)

المرأةُ تُفْتَنُ بالرجل، كما يُفْتَنُ الرجلُ بالمرأة. ولقد حرَّم الإسلام الخلوةَ بين الرجل والمرأة؛ حمايةً له ولها من الفتنة، والوقوع فيما يُغضبُ الله.

في الحديث المتفق عليه، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

---

(١) يوسف: ٢١- ٢٣.

(٢) يوسف: ٣٣.

« إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمْوَ (١) ؟ قَالَ: الْحَمْوُ الْمَوْتُ » (٢)

وفي الحديث المتفق عليه، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال: « لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ » (٣)

وروى أبو داود والترمذيُّ، عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: « كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وعنده وَمَيْمُونَةَ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ أَقْبَلَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ - وَذَلِكَ بَعْدَ مَا أُمِرْنَا بِالْحِجَابِ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: احْتَجِبَا مِنْهُ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَيْسَ هُوَ أَعْمَى لا يُبْصِرُنَا وَلا يَعْرِفُنَا ؟! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا ؟ أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ ؟! » (٤)

أخي المسلم: إن المرأةَ أُمٌّ. والأُمُّ يجبُ أن تتوفَّرَ لها جميعُ أسبابِ الرعاية والطُّهْرِ، والمحافظة على الأخلاق والفضائل؛ حتى ينشأَ بها جيلٌ يعرفُ الواجباتِ، ويحفظ الحُرُمات. جيلٌ يرُدُّ عن أُمَّتِنا الإسلاميةِ كيدَ أعدائها، بانتصار الفضائل في نفسه، وإقامة حدودِ الله في أرضه، وإعلاءِ كلمةِ الله في جميع أمره.

وأخطرِ مراحل الإعداد ترعاها الأُمُّ، وتقومُ عليها؛ فإنْ صَلَحَتْ صَلَحَتْ بها الأجيالُ، وإن فسدت، أساءَت ودمَّرت.

إنها مدرسةٌ، والمدرسةُ بلا نظامٍ وحُسنِ تدبيرٍ وتوجيه تُسيء إلى المجتمع الذي

(١) الحمْو: قريب الزوج، كأخيه، وابن أخيه، وابن عمه.
(٢) البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو مَحْرم، رقم ٤٨٣١.
(٣) البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو مَحْرم، رقم ٤٨٣٢.
(٤) سبق تخريجه.

تكون فيه.

المدرسةُ بلا صفات ومقوِّمات تصبحُ مأوى للعَبَثِ والضياع.

والشرعُ الحكيمُ قد أعطى المرأةَ من العناية ما تكونُ جديرةً بالأمومة في أُمَّة ذاتِ رسالةٍ، وجعل حقَّها أعلى الحقوق بعد حَقِّ الله ﷻ، وجعل وَصْلَها سبباً في رضاه ورحمته « مَن وصَلَها وَصَلَهُ الله، ومَن قَطَعَهَا قَطَعَهُ الله ».

ومن أعظمِ الرعاية لِحَقِّها أنْ تُصانَ من عبثِ العابثين، وهَوى المفسدين.

ومن التكريم للشيء أن تضعَهُ في الموضعِ اللائق به.

ومن التكريم للمرأة ألاَّ توصف بالرجولة، أو التشبه بها، وألاَّ يتعرض أعزَّ ما تملكه - من شَرَفٍ وعِفَّةٍ وَصَوْنٍ - للمهانةِ والابتذال.

ومراعاة الآداب والفضائل التي دعا الإسلامُ إليها وأَمَرَ بها، هي السبيلُ لحماية أُمَّتِنا من دمارِ الأهواء، وفساد الشهوات.

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١)

* * *

(١) النور: ٥٢.

٣٣

أخي المسلم:

في سورة (يوسف) يَقُصُّ علينا القرآنُ الكريمُ ما وَقَعَ من امرأةِ العزيز، وما أصاب يوسفَ عليه السلام من كيد.

وفي الحديث الماضي رأينا كيفَ فُتِنَت امرأةُ العزيز بيوسف عليه السلام؛ لِقُربِها منه، إذ هو فِي بيتِها. وكيفَ عَصَمَ اللهُ يوسفَ من الوقوع في الكيد حين استعصم ولجأ إلى ربِّه يدعوه أن يصرفَ عنه كيدهُنَّ.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾(١)

والنسوةُ إذا كِدْنَ فلا تَسَل عن كيدِهِنَّ؛ إنَّ كَيْدَهُنَّ عظيمٌ.

لقد شاع الأمرُ بين الناس، وتحدَّث النسوةُ به، وعرف الناسُ - من أوَّلِ الأمر - براءةَ يوسف عليه السلام. عرف ذلك العزيزُ نفسُه، كما عرف النسوةُ اللاتي تحدَّثْنَ في الأمر، ولكنَّ الكيدَ ألقى بيُوسُفَ في السجن وهو بريءٌ !!

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾(٢)

---

(١) يوسف: ٣٣، ٣٤.
(٢) يوسف: ٣٥.

بعد الدلائل القاطعة على براءته ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (١) !

كيدٌ أيُّ كيد. ولكنَّ المِحَنَ والشدائدَ تأتي على المعدنِ الأصيل فلا تزيده إلاَّ صلابةً وقوَّةً ونضارةً.

والحقُّ مهما حاول الناسُ التنكُّرَ له، لا بُدَّ أن يغلب وينتصر.

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ (٢)

والله ﷻ يبتلي عبادَه الصالحين، وإذا أحبَّ الله عبده ابتلاه.

يبتليهم ولا يُضيِّعهم، وينصرهم ولا يُخزيهم.

إنَّ رؤيا يراها المَلِكُ تكونُ سبباً في الدلالة على يوسف، وإظهارِ أمره، بل إظهار الحقِّ الذي حاول الكيدُ إخفاءه.

عرف الملكُ تعبيرَ رؤياه - بعد أن عُرِضَت على يوسف - فطلبَ إحضارَه؛ ليسمع منه ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ

(١) يوسف: من الآية ٤٢.
(٢) الأنبياء: من الآية ١٨.

نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ (١)

المرأةُ نفسُها هي التي تعترفُ وتقولُ: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

الحقُّ غالبٌ منتصرٌ، ولو بعد حين.

والمرأةُ إذا كَادَت أَعْمَاهَا الكيدُ.

إنَّ عاطفتَها قويةٌ غلاَّبةٌ، إنْ مَالَت إلى الشرِّ أساءَت وأفسدت، وإن سلكت طريقَ الخيرِ أحسنت وتفوَّقت.

لقد رأيناها في كيدِها ماذا صنعت، ورأيناها في إنابتها كيف أجادت وأحسنت.

﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

ومن قبل عندما أَعْمَاهَا، وتحدَّث النسوةُ عن فتنتها بفَتَاهَا، وأحضرته، ورأينه فأكبرنَهُ، وقطَّعنَ أيديَهُنَّ ﴿ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ (٢)

هذا حَوْلُها حين كادت، وذاكَ قولُها حين أنابت. وبين الكيدِ والإنابة نفسٌ تغيَّرت من حالٍ إلى حالٍ، صَمَدَ فيها الحقُّ وَصَابَرَ، فانطوى أمامَه ظلامُ الباطل بكيده وتدبيره.

وخرج يوسفُ – من بعدُ – ليكونَ أمينا على خزائن الأرض.

---

(١) يوسف: ٥٠- ٥٣.

(٢) يوسف: ٣٢.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ ﴾ (١)

هكذا يعلّمنا القرآنُ رجالاً ونساءً، ويُبصِّرنا ويُرينا عاقبةَ التقوى، ونتائجَ الاستقامة. هكذا في قصصه - وفي جميع آياته - يُنيرُ لنا الطريقَ في كُلِّ شيء، ويُرينا ما يرتفع به الإنسانُ وما به ينخفض، ولِمَن تكونُ العاقبة.

هكذا يُعلِّمُنا أن العلمَ الموصول بالله يرفعُ أهله، ألَم يَقُل يوسفُ في سجنه - وهو يدعو إلى ربِّه -: ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ ﴾ ؟ (٢) ألَمْ يطلب الملكُ عِلمَه؛ لتأويل رؤياه، ودعاه واستخلصه لنفسه، وجعله على خزائن الأرض ؟

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾ (٣)

* * *

(١) يوسف: ٥٤- ٥٧.
(٢) يوسف: من الآية ٣٧.
(٣) الطلاق: ٢، ٣.

٣٤

أخي المسلم:

في قصص القرآن عِبْرَةٌ لأولي الألباب، وهُدىً ورحمةٌ لقومٍ يؤمنون. وللمرأة في قصص القرآن نصيبٌ.

ومن قبلُ وقفنا عند كثيرٍ من قصصِ القرآن، ورَجَوْنَا أن يرزقنا الله العبرةَ والخشيةَ، وأن يوفّقنا إلى ما يُرضيه عنَّا.

ونقفُ اليومَ في قصةِ موسى في سورة (القصص)؛ لنرى حالَ المرأتَيْن اللَّتَيْنِ وجدهما موسى عندما وَرَدَ ماءَ مدين.

خرج موسى عليه السلام مُهاجِراً عندما تآمَرَ الملأُ على قتْله، وأُخبِرَ من قِبَلِ رَجُلٍ مؤمنٍ، فاستمع إليه، واستجاب لنُصحه.

﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]

خرج موسى عليه السلام مُهاجراً خائفاً يترقّبُ؛ قاصِداً بلادَ (مَدْيَن)، وقضى في سَيْرِه ليالي وأياماً.

(١) القصص: ٢٠- ٢٢.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾(١)

من حديثِ القرآن نستطيعُ أن تعرف حالَ المرأتَيْن:

الناسُ تزاحموا على موردِ الماء، والمرأتان تفصلان أغنامَهما؛ حتى لا تختلط بأغنام غيرِهما، وينتظران حتى يذهبَ هذا الحشدُ، وينصرف الجَمْعُ، ويخلصان للسُّقْيا في غير تبذُّلٍ أو اختلاط.

(١) القصص: ٢٣- ٢٩.

أدبٌ رفيعٌ تتأدَّبُ به المرأةُ إذا اضطُرت إلى العمل ودعتها الحاجةُ إليه.

ورأى موسى عليه السلام حالَهما، وسألهما: ﴿ **مَا خَطْبُكُمَا** ﴾؟ فأجابا بما أفادَ أنهما لا يُريدان مزاحمةَ الرجال، وقد جاءا للسُّقْيا إضْطراراً؛ لأن أباهما شيخٌ كبيرٌ.

﴿ **قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)** ﴾

ولم يتوان موسى عليه السلام عن النَّجْدَةِ ومعاونة مَن يحتاج إلى المعاونة في صِدْقٍ وبِرٍّ، وَجَدٍّ واستقامةٍ ﴿ **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)** ﴾

عادت الفتاتان - على غير عادتهما - إلى أبيهما الشيخِ مُبكِّرتَيْن، فسألهما، فأخبرتاه بما صَنع القويُّ الأمينُ، فأرسل في طَلَبه.

﴿ **فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ** ﴾ مِشية العفيفة الطاهرة ﴿ **قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** ﴾

كلماتٌ محدودةٌ واضحةٌ تُنْبِئ عن شَرَفِ القَصد، واستقامة السعي.

فأجاب موسى دعوةَ الشيخ، وأَنِسَ به، وقصَّ عليه قِصَّتَه، وأفْضَى إليه بِسرِّه، فطمأنه الشيخُ، ورحَّب به، وقال: ﴿ **لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥)** ﴾

والصفات الفاضلة تُنْبِئُ عن صاحِبها.

طَيِّبٌ لَقِيَ طَيِّباً، طَبْعٌ لَقِيَ طَبْعاً كريماً وخُلقاً أصيلاً.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

رَغَّبت إحدى الفتاتَيْن أباهَا أن يستأجره؛ ليقوم بما كانت تقومان به؛ لقوَّته وأمانته، وعرض الشيخُ الكبيرُ على موسى أن يختار إحدى ابنتيه زوجاً له، ففعل على ما شرَطَه عليه ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٢)

وأهلُ العفَّةِ ينشدون الحلالَ ويطلبونه. عَرْضُ الوليِّ ابنتَه على الرجل الصالح سُنَّةٌ قائمةٌ. عَرَضَ شعيبُ ابنته على موسى، وعَرَضَ عمر رَضِيَ اللهُ عنه ابنتَه حفصةَ على أبي بكر، وعثمانَ رضي الله عنهما، كما عرضت الموهوبةُ نفسَها على النبيِّ ﷺ.

للعفاف لغتُه ومَنْطِقُه، وصِدْقُه وصراحته.

وهذا نداءُ الله لنساءِ النبيِّ: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ (٣)

وفي ذلك عِظَةٌ لِمَن يتَّعِظ، وَعِبْرَةٌ لأولي الألباب.

وآخرُ دَعْوَانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

وصلى اللهُ وسلَّمَ وبارَكَ على سيدِنا محمدٍ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ أجمعين.

---

(١) آل عمران: من الآية ١٠١.

(٢) القصص: ٢٧.

(٣) الأحزاب: ٣٢.

رقم الإيداع ٢٥٥٢٥/٢٠٠٧